

مِن وَحْيِ الْوَافِرِ

وقصائدُ أخرى

الحَسَّانِي حَسَنُ عَبْدِ اللَّهِ

إهداء

إلى عارفيّ، لِعرفانهم، هديةً مُغتبطٍ يشكرُ
إلى مُنكريّ الأُلى أظهِروا، ومُستنكريّ الأُلى أضَمروا
هديةً مَنْ لم يزلْ آملاً برغمِ الدّياجيرِ أن يُبصروا
إلى هؤلاء والألاءِ سواءً كتابي، وحُييتَ يا مُبحرُ
قَصَدنا الأواذِيَّ هَدَّارَةً، فما راعنا تَبَجَّ يَهْدِرُ
فإن كنتَ ذا قُدرةٍ فاصحَبنا، وإلا ففسِّحْ لمنْ يَقْدِرُ



البيان الثاني

لَدَيْنَا فِي شِعْرِنَا الْحَدِيثَ مَسْأَلَةٌ. وَمَطْلُوبٌ أَنْ نَسْتَجْلِيَهَا، وَأَنْ نَعْكِفَ عَلَى مَعَالِجَتِهَا، وَأَلَّا نَفَارِقَهَا حَتَّى نَنْتَهِيَ فِيهَا إِلَى قَرَارٍ. سُمِّيَتْ قَبْلَ سَبْعِينَ عَامًا بِالشَّعْرِ الحَرِّ، ثُمَّ تَوَالَتْ عَلَى تَسْمِيَّتِهَا اسْتِدْرَاكَاتٌ، لَكِنْ لَا تَزَالُ التَّسْمِيَةُ الْأُولَى هِيَ الْأَشْبَحُ، وَإِنْ شَابَهَا بَعْضُ غَمُوضٍ مَرَجَعُهُ إِلَى مَعْنَى الحَرِيَّةِ. عَرَضْتُ لَهَا فِي بَيَانٍ أَوَّلٍ مُسْتَهْلًا "عَفْتُ سَكُونَ النَّارِ" نُشِرَ سَنَةَ 1972م رَاجِيًا أَنْ يَكُونَ مُحَقِّقًا لِلْمَطْلُوبِ إِذْ أَلَمْ يَجْوَابِ الْمَسْأَلَةَ فِي مُجْمَلِهَا، لَكِنْ خَمْسِينَ عَامًا مَرَّتْ وَلَا يَزَالُ الْغَرَضُ يَنُأَى، مُنْبِتًا أَنَّ هُنَاكَ صَعُوبَةٌ. وَالصَّعُوبَةُ - عِنْدِي - رَاجِعَةٌ إِلَى طَرُوءِ مَعْنَى "الحَرِيَّةِ" عَلَى شِعْرِنَا الْحَدِيثِ، وَعَلَى حَيَاتِنَا الْحَدِيثَةَ كُلِّهَا، وَهُوَ مَعْنَى لَمْ يَكُنْ قَائِمًا فِي الْعَقْلِ النَّاطِقِ بِالْعَرَبِيَّةِ قَدِيمًا، فِي الشَّعْرِ، أَوْ نَقْدِهِ، أَوْ فِي الْحَيَاةِ عَلَى وَجْهِ الْعَمُومِ. ذَلِكَ أَنَّهُ مَعْنَى وَقَدْ إِلَيْنَا مِنْ بَعِيدٍ، وَلَمْ يَكُنْ نَاشِئًا فِيْنَا.

كَانَتْ "الحَرِيَّةُ" عِنْدَ الْعَرَبِيِّ "فَطْرَةٌ". كَانَتْ هِيَ "الأَصْلُ" الأَصِيلَ فِي عَالِمِهِ كُلِّهِ. لِذَا لَمْ يَكُنْ مَحْتَاجًا إِلَى أَنْ يَجْعَلَ مِنْهَا مَوْضُوعًا لِلنَّظَرِ فِي مَعْنَاهَا. وَلِذَا بَرِيءُ فِكْرُهُ مِنْ "اللَّتِّ وَالْعَجْنِ" الَّذِي مَلَأَ فِكْرَنَا الْحَدِيثَ بِشَأْنِ ذَلِكَ الْمَعْنَى. قَالَتْ "هِنْدٌ" مَنْدَهْشَةً لَمَّا أَمَرَتْ النِّسَاءَ بِأَلَّا يَزْنَينَ "وَهَلْ تَزْنِي "الحَرَّةُ" يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! ". وَأَدُلُّ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ عَلَى اسْتِحْكَامِ مَعْنَى الحَرِيَّةِ فِي الْوِجْدَانِ الْعَرَبِيِّ كَلِمَةً عُمَرُ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِ

لعمر بن العاص، رفيقه في الصُّحبة والجهاد "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم "أحراراً"؟! "الناس" - أى كلَّ الناس لا العرب وحدهم. الأصلُ عند العربيِّ ألا يُقَهَّر أحدٌ. "ولدتهم أمهاتهم أحراراً". وأرضُ الله واسعة. ما على العربيِّ إذا أراد أن يملأ رثيته من سَعَتِهَا إلا أن يخرجَ من داره متأبطاً "شره" ليجدَ نفسه في فلاةٍ هو خريثُهَا الضاربُ فيها - بعبارة المتنبّي - بلا دليل، والصابرُ على حرِّها بلا لثام. هو حرٌّ، وكلُّ عباد الله أحرارٌ، بحُكم خلقه ربه، لا استنتاجاً من مقدّماتٍ أو مجادلات. تلك طبيعته الحقُّ التي قد تصيَّبها الحوادث أحياناً بالوهن، لكنها لا تلبثُ أن تلمَّ الشَّعَثَ عائدةً إلى سابق عهدها، إلى أصلِ خلقتها.

وإذا استحضرنَا في أخلاَدنا أن الحرية في وجدان العربي أصل، فيجبُ أن نذكر معها أن كلَّ شئون الحياة وكلَّ علومها قائمةٌ على "أصول". والله دُرُّ ابن جنّيٍّ لَمَّا رأى في العربية "خصائص" هي فيها "أصولٌ" عليها تتجاوزُ ما فيها من مقتضيات الرُفَع والنُصَب والجرِّ والجزم مما فُرِعَ منه في أكثر الكتب المصنَّفة فيه، ولَمَّا طَلَبَ لكتابه الشهير الصعبِ أن يكون مبنياً على "إثارة معادن المعاني، وتقرير حال الأوضاع والمباني، وكيف سَرتْ أحكامُهَا في الأحناء والحواشي". [الخصائص: 33] الأحناء جمعُ حِنو كَعِلم. كلمةٌ استعملها ابن جنّيٍّ في موضع آخر [ص 13] وقال المحقق في شرحها "أحناءُ الأمورِ أطرافُهَا ونواحيُّهَا، وأحناءُ الأصلِ اللغوي تصاريفه، فإنَّ

كلّ تصريفٍ طرفٌ له وناحيةٌ منه". ورحمَ اللهُ الشيخَ "محمد على النجّار".

هُدَى ابن جنّي إلى علم بشأن طبيعة العربية رآه جديداً. وإنه كذلك. علمٌ ظل عاكفاً عليه زمناً مُعظماً له، معتقداً فيه أنه من أشرفِ ما صُنّف في علم العرب "وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة، ونيطت به من علائق الإتقان والصنعة"، مقررّاً أن البصريين والكوفيّين نكّلوا - مُعظّمهم - عن الخوض فيه لما فيه من غرابةٍ وفداذة.

وأكتفى هنا بملحظ واحدٍ تاركاً التفصيل إلى غير هذا المقام. بدأ الرجلُ كتابه بالفرق بين الكلام والقول ناظرًا في "أحوال تصارينهما واشتقاقهما مع تقلّب حروفهما - قال: فإن هذا موضعٌ (يعنى الاشتقاق مع التقلّب لا الاشتقاق المعهود المعلوم في علم الصرف) يتجاوزُ قدرَ الاشتقاق، ويعلوه إلى ما فوقه". وأريدك الآن أن توجّه أقصى انتباهك إلى الجزء الأخير من العبارة، أعني إلى قوله "يعلوه إلى ما فوقه، قبل أن تتأمل ملاحظته. قال: "إن معنى "ق و ل" أين وُجدت، وكيف وقّعت، من تقدّم بعض حروفها على بعض، وتأخّره عنه، إنما هو الخفوف والحركة، وجهاتُ تراكيبها السّتّ مستعملةٌ كلّها". [قال الشيخ النجّار: الخفوف من قولهم: خفّ القوم إذا ارتحلوا مسرعين.]

الخفوف والحركة ! ذلك هو المعنى "الأعلى" الذى كان يجول فى خاطر العربى - واعياً أو غير واع - وهو يُقلِّب المادة المعطاة له فى جهاتها الستّ، فلا يترك منها جهةً إلا ولها حظّ من ذلك المعنى العام الذى يتنزّل من عليائه على اللسان بادياً على نحوٍ ما فى كلِّ أحناءِ المادة. وإدّن هذه لغةً كأنها نشأت فى السماء. فأىّ عجبٍ هذا؟! لكنّ يلزمنا هنا بُبْنةً نحاولُ فيها أن نكشفَ عن وجهِ العجب، أو بعضه على الأقل. "ق و ل" تلك هى المادة المتاحة. فلننظر كيف عاجلها العقل العربىّ قبل أن تستحيلَ إلى ألفاظٍ متنوعةٍ جاريةٍ على الألسنة فى انسجامٍ وسلاسة. وتفسيرُ هذا - عندى - هو الكلمةُ التى تُستعملُ أحياناً فى تفسير الشعر: الإلهام. أُلهم العربىُّ وسيلةً سهلةً يقتدر بها على توليد ما لا حصر له من الألفاظ هى ما سمّاه بعضُ عظمائنا القدامى من علماء الصرف والنحو "الأوزان". الوزنُ هو القائد، هو الأمر، وما على اللسان إلا أن يطيع. وهذا شىءٌ يشبه الحاصلَ عند نظم الشعر. لا يستطيعُ الشاعرُ أن يمارس عمله عندما تنهياً له البواعثُ إلا إذا جاءه أمرٌ من الوزن أو من "البحر" كما سماه الخليل. عندئذ فقط يمكنه أن يُحرِّك ألفاظه تلك الحركةَ العجيبةَ التى نسميها "الشعر" مستعيناً بكل خصائص لغته التى نُفِذ إليها وكُشف عنها ودوّنت فى علوم.

أردتُ أن أُبين لك عن وجه العجب فيما لحظه ابن جنى، لكنّ كأتى أحلتك إلى ما هو أعجب. ما تلك الأوزان؟ ما حقيقتها؟ ما

طبيعتها؟ وما نوع الحركة السارية في كل وزن مميزة له عما سواه، دالةً على معنى خاص يتوخاه الناطق غير مستطيع العبارة عنه إلا بتلك الحركة التي كأنها لحنٌ وما هي باللحن؟ أعنى أن الوزن هنا مغايرٌ للوزن العروضي، اتحد اللفظان وافترق المصطلحان. مسألة واضحة أنها صعبة. وواضح أنها توشك أن تُدخلنا إلى ذلك العالم الغامض، كثيف الغموض، عالم الروح. تساءلتُ في البيان الأول عن سرّ الوزن الشعري، أو العروض، متوقفًا عند الخفيف:

فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

قائلًا: ما الذي يُنشئ من هذا الترتيب لحنًا معجبًا.؟ ثم أعلنتُ عجزى عن الجواب، وكأني أعلن عجز كلِّ أحدٍ سواي. وهأنذا الآن أكرر التساؤل لكنّ بشأن أوزان الصرف لا أوزان العروض. وأقول لك جازمًا بأننا إذا طلبنا الجواب في عالم الحسّ، أو الأعيان، أو الخارجات، فلن نجدّه. مطلوبٌ منك أن تناجيَ روحك، لعلها تُفضي إليك بشيء.

دعْ ذا إلى حين، ولنعدْ إلى شيخنا. أخبرنا أن أبا عليّ - أستاذه - كان يرى ما رآه. قال: شاهدته غير مرة إذا أشكل عليه الحرف، الفاء أو العين، أو اللام، استعان على علمه بتقليب أصول المثال الذي ذلك الحرف فيه. قال: "فهذا أغرب مأخذًا مما تقتضيه صناعة الاشتقاق، فإنّ ذلك إنما يلتزم فيه شرحٌ واحد من تتالي الحروف من

غير تقليد لها ولا تحريف". قال المحقق: الشَّرْحُ الضَّرْبُ. يقال هما شَرَّحَ واحداً، وعلى شرح واحد، أى ضربٍ واحد. وابن جنى يعنى بصناعة الاشتقاق الاشتقاق الصرفى المعروف. وهو غير الاشتقاق "الأعلى" الذى لحظه وأعجب به هو وشيخه. وإليك فرق ما بينهما.

"ق. و. ل.". ثلاثة أصولٍ لكلمة. لشيءٍ يكون. هى ما سماه علماء الصرف بالمادة. لكنها تبقى جامدةً خرساءً لا تقوى على أن تصير "شيئاً كائناً" إلا إذا أضيف إلى كلٍ منها حركة. أخبرنا سيبويه أن ذلك رأى الخليل. قال: قال الخليل "وإنما البناء على الساكن"، يعنى على المادة الأصلية، التى هى هنا "القاف" و"الواو" و"اللام". ألحق العربى بكل منها فتحةً فنطق الأخرس: قَوْل. هذا باعتبار ما يفرضه الوزن، لكنّ العربى باعتبار ما يناسب لسانه كان له رأى آخر. قَلَبَ الواو ألفاً لانفتاح ما قبلها؛ وَجَدَ هذا أيسر، وجعله قانوناً فى كل واو أو ياء تتحرك وينفتح ما قبلها. فَعَلَ هذا - ربما واعياً وربما غير واعٍ - لكنّ الذى يعيننا هنا على كل حالٍ هو أنا بإزاء قضيةٍ ليس فيها أدنى ريبٍ: إن هنا "نظاماً"، أى إن ما نطق به العربى لم ينطق به سَبَهَلًا، أو تأثراً بشيء ما فى عالم الأعيان، وإنما جاء به استجابةً لتوجيه عُلوّى. ولعلّ فى هذا بعض ما يفسّر ثناء ابن جنى على "هذه اللغة الشريفة"، وعلى ما أودعته "من خصائص الحكمة". أى من الخصائص الدالّة على أن العرب أمةٌ حكيمةٌ حباها الله عقلاً قوياً

ووجداناً مرهفًا، وعلى أنها ذات ذوق حسّاسٍ خبيرٍ بكل ما هو
أنسبٌ وأجمل في اجتماع الأصوات وتفاعلها.

هذه لمحةٌ عن الاشتقاق المعتاد، ذى الشرح الواحد. أما الآخر
الذى هو أعلى فهو أروع. "ق.و.ل". بعد أن فرغ العربيّ من تصريف
هذه المادة حسبَ المركزِ في وجدانه من أوزانٍ لم يَفْنَع. ورأى في المادة
بأبًا لا يزال مفتوحًا لمزيد من التصريف. خطر له - واعيًا أو غيرَ واعٍ
- أن يقلّب المادة لينظرَ ماذا بعدُ، فجاءته "ق.ل.و"، ثم بدأ بالواو
فجاءته "و.ق.ل"، ثم غيرَ الترتيب فجاءته "و.ل.ق" ثم بدأ باللام
فجاءته "ل.ق.و"، وغيرَ الترتيبَ أخيرًا فجاءته "ل.و.ق". ثم غلغلَ في
هذه الجهات الستّ مشيئًا فيها جميعًا معنى "الخفوف والسرعة". قال
في توجيه الأصل الأول، وهو القولُ إن الفمَ واللسانَ يخفّان له
ويقلقان، وهو بضدّ السكوت الذى هو داعيةٌ إلى السكون. قال: "ألا
ترى أن الابتداء لما كان أخذًا في القول لم يكن الحرفُ المبدوءُ به إلا
متحركًا، ولما كان الانتهاء أخذًا في السكوت لم يكن الحرفُ الموقوفُ
عليه إلا ساكنًا". وقال في توجيه الأصل الثاني: منه القلُوبُ: حمائرُ
الوحش، وذلك لخفته وإسراعه. ومنه قولهم "قلوبُ البُسرِ والسويق،
وذلك لأن الشىء إذا قُلِيَ جفَّ وخفَّ، وكان أسرعَ إلى الحركة". وقال
في الثالث: منه الوقْلُ [ويُقَال فيه الوقْلُ والوقْلُ كذلك] للوعِل، وذلك
لحركته. وقالوا: توقّل في الجبل، إذا صعّد فيه، وذلك لا يكون إلا مع
الحركة والاعتماد. وقال في الرابع: قالوا: ولق يلق: إذا أسرع. وقال في

الخامس: جاء في الحديث "لا آكلُ من الطعام إلا ما لَوَّقُ لي، أى ما خُدم وأُعملت اليدُ في تحريكه حتى يطمئن وتتضامَّ جهاته. ومنه اللُّوقَةُ" للزبدة، وذلك لخفتها وإسراع حركتها". وقال فى السادس: منه اللُّوقَةُ للعُقاب، قيل لها ذلك لخفتها وسرعة طيرانها.

ذلك هو الاشتقاقُ الأعلى، وواضحٌ به أن لدينا هنا "نظامًا" آخرَ يُضافُ إلى النظام السابق. وواضحٌ بهما - وبغيرهما بطبيعة الحال - أن العربية مجموعة من "الأنظمة" التي يحقُّ لنا متابعَةً لابن جنى وصفُها بالعلوية. أى أنها شيءٌ يصعب جدًّا نسبتُهُ إلى "الأرض" وما تعجُّ به من مصادفات، أو إلى ما سُمى فى علم الطبيعة الحديث بالفوضى الخلاقَة. وإنما هى شيءٌ يكاد يكون معجزة. شىءٌ يؤكِّد صحة ما قرره فلاسفة ما سُمى فى تاريخ الفلسفة بالمذهب العقليّ، الذي يُقال له بالإنجليزية rationalism فى مقابل ما يقال له فيها المذهب الحسّيّ empiricism، وهى الكلمةُ التى كأنَّ المترجمين المحدثين صعبتْ عليهم ترجمتها فاقتراح بعضهم تعريبها بـ "امبريقا" أو "امبريقية" وهو لفظ فيما أرى لا يسوغ، ولا حاجة إليه.

والخلاصةُ أن العربية لها على وجه العموم "نظام" ومطلوب إدنٌ من أهلها الناطقين بها أن ينسجموا مع هذا النظام. وهم يُسيِّعون إليها إن لم يفعلوا، ويسيعون - مِنْ ثَمَّ - إلى أنفسهم. هى نظامٌ فى صرفها، ونظامٌ فى نحوها، ونظامٌ فى عروضها، ونظامٌ فى أساليبها البلاغية. وهذه الأنظمةُ تأتلف جميعًا مُنشئةً روحًا واحدةً تسرى فى ذلك الجسد

البديع الذي يُسمى "العربية"، والذي لا يزال حيًّا، وسيبقى حيًّا بإذن الله، وفضله، وفضل مزاياها الذاتية التي أعانتها على الحياة حَقْبًا تَلَوَّ حَقْبٍ برغم ما أصابها، ويصيبها، من سهام.

تَبَّتْ إِذْنُ بِتَحْلِيلِ ابْنِ جَنَى لِمَسْأَلَةِ الْاِشْتِقَاقِ أَنَّ الْعَقْلَ الْعَرَبِيَّ مَطْبُوعٌ عَلَى أَنْ يَكُونَ مُشْرِفًا مَوْجَّهًا مَهِيمًا، قَادِرًا عَلَى أَنْ يَرَى أْبَعَدَ كَأَنَّهُ زَرْقَاءُ الْيَمَامَةِ، أَوْ كَأَنَّهُ فَارِسٌ قَائِدٌ أَرِيْبٌ مَعْوَاژٌ مَحْسَنٌ لِلْكَرِّ وَالْفَرِّ، بَيْنَمَا تَرَاهُ هُنَا إِذَا بِهِ فِي مِثْلِ لَمَحِ الْبَصْرِ هُنَاكَ. اللَّغَةُ أَصْوَاتٌ لَا تَبْعَثُ فِي الْعَرَبِيَّةِ اتِّفَاقًا وَلَا تُصَدِّرُهَا أَلَلَّهَوَاتٌ كَيْفَمَا اتَّفَقَ، وَإِنَّمَا هِيَ دَائِمًا فِي طَاعَةِ الْعَقْلِ. وَمَنْ أَرَادَهَا إِذْنُ عَلَى غَيْرِ هَذَا، وَسَنَرَى أَنَّهَا أُرِيدَتْ عَلَى غَيْرِ هَذَا، إِنَّمَا هُوَ إِمَّا عَابَتْ مَهْدَاژٌ أَوْ سَاعٍ عَمْدًا إِلَى شَرْ.

قال قائلٌ من كلامٍ مفترَضٍ أنه شعر:

التفت أشجارنا بالرحم فارتفعت على الصندوقِ شاهدةً:

هنالك نارنا السفلى مُغَدَّاةً بِأَكْبَادِ النُّوَارِسِ

خطوةً ويصيرُ نحرٌ لَصَقَ جِثَّتِهِ

فماذا أدهش الروحَ

اتَّفَقْنَا وَالضَّفَائِرُ مُثْقَلَاتٌ بِالنَّائِجِ

هل رقابُ المبدعين رهينةٌ؟

تدنو إلى أحداقنا الكُؤاتُ عادلةً:

تُهرَّبُ للخلائات القريبةِ نارنا العُليا

وتنقبضُ انقباضَ الساترينَ

نوافذى مفتوحه.

وكتب كاتبٌ تعقيبًا على هذا الكلام يقول:

"أعترفُ أن هذا المقطع استغلق تمامًا على ملكة التخيل والفهم عندى ... فالأسطرُ تبدو جُملاً منفصلةً منطلقاتٍ في اتجاهاتٍ غير متجاوبة، والصُّور كأنها حُمُرٌ مستنفرةٌ ... فالمقطعُ كله دالٌّ على ما يمكنُ أن تصلَ إليه الكتابةُ التلقائيةُ إذا تحوّلتُ إلى شطحٍ يتباعدُ كلَّ التباعدِ حتى عن هدفه الجمالىّ [قلتُ: كأن الجمالَ يمكنُ أن يكون هدفًا للشطح!] - قال: "ونماذجُ هذا النوع من الشطح الجمالىّ تجسيدٌ لأقصى الطرفِ الذى تغدو فيه الحداثةُ مبتورةً الصلةِ بالمنطق الداخلىّ (الشعورىّ أو اللاشعورى) اللازم لهذا النوع من الكتابة، وإلاّ انقطعتُ إمكاناتُ اتصاله بالقارئ".

وهنا يلزمنا لُبثةٌ أخرى للخطِ أمورٍ في هذا الاعتراف:

الأول أن حكمه بالاستغلاق منطوقاً على تناقض مع حكمه على النص (إذا افترضنا أنه نص) بأنه "جمل". ذلك أن "الجملة" تعني الفائدة، ولعل الأستاذ يذكر، وهو أحد أساتذة العربية قول ابن مالك "كلامنا لفظٌ مفيدٌ..."، وما هو "مستغلقٌ" غير مفيد، وكأنه - بدون أن يفطن - جمع في صفة النصّ أنه غير مفيد ومفيد، وهذا هو الجمع بين النقيضين المقرر في علم المنطق أنه ممتنع. وتناقض كذلك إثباته صوراً ليست صوراً لأنها حمراء مستنفرة.

والثاني أن ما سماه بالكتابة "التلقائية" إنما هو تجويز أو تشريع للكلام الفارغ. والأصل في الكتابة أنها قيد أو ضبط للفكر.

والثالث: أنه جعل ما سماه بالسطح الجمالي مذهباً من مذاهب ما سماه بالحدائث. وكأنه مقضى على أهل هذا العصر الحديث، وأهل كل عصر يتحدث بعده أن يكونوا من الشاطحين، والحجة التي يقيمها الدجل أنهم يبتغون الجمال بشطحهم!

دعاني إلى التوقف عند هذا العيب في هذا المقطع دلالاته على مرض فشا في الشعر الحديث كله، وخصوصاً في نصف القرن الأخير، ولولا هذا ما باليت، ليس همي إلى هذا النص أو ذاك، لكن همي إلى الحالة العقلية أو النفسية أو الروحية العامة، هذه الحالة تتجاوز الأفراد من حيث هم أفراد لتشتمل الوجود القومي كله، وهذا هو الخطير؛ ألسنا أبناء أمة؟ ألسنت أنا وأنت جزءاً من كلٍ مفترض أن يكون

قائمًا، وأن يكون وجودًا متماسكًا قويًا عزيزًا؟ تلك هي المسألة التي قلتُ مستهَلَّ هذا البيانِ الثاني أنها هي التي تعينني، لا تقصيرٌ هنا وتقصيرٌ هناك من شاعر، أو غفلةٌ هنا أو غفلةٌ هناك من كاتب أو ناقد، هذا الغموضُ المتكاثفُ في الفكر الحديث كله لا في الشعر الحر وحده صار كأنه شيءٌ مُرادٌ، لا شيءٌ جاءتنا به مصادفةً عمياء أو تفاعلات اجتماعيةٌ ماديةٌ خالصة. ولك أن تقولِ إذَنْ إنه "ظاهرةٌ" سياسيةٌ لا ظاهرةٌ فنية.

ظهرَ ما يشبهُ هذا النوعَ من العيب في الحياة العربية قديمًا، زمنَ البعثة النبوية المباركة، لما خطرَ لنبيِّ كذابٍ إمكانُ أن يروجَ كذبه عند عربِ زمانه، وعُرضَ كلامه على أبي بكرٍ رضوانُ الله عليه فردَّ المكرَّ ردًّا حاسمًا قاطعًا بكلمة واحدة؛ قال لهم: 'ويحكم! أين يُذهبُ بكم، هذا كلامٌ لا يخرجُ من إل'. قلتُ لئلاَّ معانٍ متعددة، لكنَّ السياق دالٌّ دلالةً واضحةً على أن المعنى الذي يستقيمُ معه هو "العقل". وكانَ أبا بكرٍ أراد أن يقولَ للعرب: إن القرآنَ على النقيض. أعملوا عقولكم تعرفوه. قلتُ: وكانوا مُهيئينَ للتجاوب مع هذا المطلب لأنهم كانوا أهلَ شعر، أعنى أهلَ عقل. للشعر عندهم شرطٌ أولٌ، أو حدٌّ أولٌ، أو عمودٌ أولٌ هو العقل. وذلك بيِّن في اللغة كلِّها، نثرها وشعرها وقرآنها.

ولا يخلو زمن - بطبيعة الحال، أي بحكم ما طُبِع الناسُ عليه - من قلة العقل. لكنَّ هذه الحقيقةُ العامة لا ينبغي أن تُطمئننا، لأن

الذى نحن فيه فى هذا الزمن مختلف. إنه ركونٌ إلى التسيب واستنامة له، حتى لكأن الناس فى خدر. وإلا فكيف جاز للكتابة 'التلقائية' أن تكون "مذهبا" عند أناس مفترض أنهم عقلاء!؟

والسؤال الصعب الآن: ما الذى هيا لهذا العيب المدمر أن يوجد، وأن يتمكن؟ الجواب عندي، وعند كل ناظر متأمل فيما سبق، لا مناص من أن يكون منوطاً بنشأة تلك الطريقة التى جدت على نظم الشعر فعَدَلتْ به عن البيت الذى له أول معلوم وآخر معلوم إلى "تفعية" تنطلق بلا رَسَنِ ثم تمضي إلى حيثُ تدفع بها ريح المصادفة وإغراءات الأصوات أو أجراس الأحرف، ثم لا تكون النتيجة بعد هذا التفلت إلا ضعف القدرة على الضبط وكبح الجراح والقيادة الرشيدة للفكر الشعري. لا مناص، ويندرُ جداً أن تجد من يفلح فى النجاة من هذا الوبال. ثم يقع هذا النثارُ بين يدي الناقد فيقلبه ذات اليمين وذات الشمال راجياً أن يحصل على معنى فلا يجد إلا أوشالاً، ويُضطر عندما تعجز "ملكة" التخيل والفهم عنده عن الاستيعاب إلى "الاعتراف" بالعيب متظاهراً بإيثار الإنصاف.

ما الذى شقّ اللغة - وهى فى الأصل شىء واحد بطبيعة الحال - شقّين، فصارت إلى نثرٍ وشعر؟ الجواب القديم والذى سيظل صحيحاً عندنا على الأقل هو "الوزن والقافية". بهما وقعت الفرقة البيّنة. وهذا واضح. أمّا غيرُ الواضح فهو كيف كان ما كان؟ فى حوالى ألف وثلاثمئة صفحةٍ حاول السودانيّ عبدالله الطيب أن يجيب،

لكنه - وأسفا - ضلّ، لأنه رفض القول بالفطرة وانحاز انحيازاً كاملاً إلى تفسير حسيّ ماديّ. وهو رجل ذو علم واسع باللغة، وصاحب شعر كذلك، فهو لهذا مستحق للاهتمام وفحص ما يزعم، وقد أسرف جدّاً في ذهابه إلى أن العروض العربي وافد من اليونان، مستنداً إلى رأى خاطئ أن العروضين ينتميان إلى ضرب واحد يُوصف في علم اللغة بالكمّي. وقد رددتُ عليه في مقامٍ آخر، فلا حاجة إلى تكرار القول.

لكن الذي يعيننا من ذكره هنا ما نحن فيه من النظر في مسألة الشعر الحر، وعلاقتها بالعقل العربي من جهة، وبالسياسة العربية من جهة أخرى، وإن كانت الجهتان عندي جهةً واحدة، أو كأنها كذلك.

السؤال الصعب، وما أكثر الأسئلة الصعبة، من أين جاءنا الوزن والقافية؟ وإن اعتمدنا القول بالفطرة، فما حقيقة الفطرة؟ وكيف أمكن لها أن تتول إلى لغة ذات قوام بديع قائم على "أنظمة" متعددة - كما قلنا من قبل - اتّحدت في "نظام" شاملٍ سرى في كل جوانبها وهياً لها أن تكون مُلهمة للعقل العربي إلهاماتٍ متنوعة ذات نتائج مشهودٍ لها بالعظمة حتى من أعداء العربية؟ واجهتُ المسألة في البيان الأول، مستشهداً بالخفيف، أنه لحن فدّ. لم أقصد الخفيف من حيث هو، بل قصدت كل بحر يشبهه من البحور المتغايرة التفاعيل كالطويل أو البسيط على سبيل المثال. ظنّاً مني أن تفسير الجمال الموسيقيّ مع التغاير أصعب منه مع التماثل، لظهور التكرار مع الأخير وعدم

ظهوره مع الأول. أثرت المسألة وتركبتها بلا حل، معتدراً بأنها "رُوحية"، وأن الرُّوح من أمر الخالق. ومرت أعوام وأعوام والمسألة باقيةً على غموضها. ومع اعترافى بأنها لا تزال غامضةً وجدتُ عندى بعض الضوء.

هنا يلزمننا وقفةً مع مصطلح مألوفٍ في علم الموسيقى غير مألوفٍ في علم العروض: الإيقاع.

جاء في "اللسان": "الإيقاعُ من إيقاع اللحن والغناء. وهو أن يُوقَعَ الأَلْحَانُ وَيَبَيَّنَهَا. وسَمَّى الخليل رحمه الله كتابًا من كتبه في ذلك المعنى "كتابَ الإيقاع". واضح من هذا أن الكلمة مستعملةٌ في لغتنا من قديم. لكن ليس بين أيدينا كتاب الخليل في العروض، ولا كتابه في الإيقاع. وعلينا إذن أن نُعمل الاستنتاج بقدر الإمكان لنعرف شيئاً يُطمأنُ إليه عن طبيعة الإيقاع. تدلُّنا قواعد الاشتقاق في التصريف العربى على أن الكلمة مصدر "أوقع" أو "أفعل" الثلاثى المزيد بالهمزة. أمّا المجرّد فهو "وَقَعَ" الذى يجئ مباشرةً من المادة الأصلية الثلاثية، الواو والقاف والعين، والذى مصدره "وَقَعُ"، والوقع، لغةً، هو الأثر الذى يُحدثه الصوت مطلقاً وينقله العَصَبُ إلى الوجدان. وهذا لا يعيننا هنا، وليس يعيننا كذلك الصوت اللغوى لأنه مبحثٌ متعلق بعلم الأصوات. إنما الذى يعيننا الآن فهو ما يمكن أن يُسمى "الصوتَ الشعرى". أى الصوت الذى هو أول الشعر. هذا الصوت الشعرى منصوصٌ عليه في كل كتب العروض. يقول التبريزى مثلاً:

الشعرُ كُلُّه مرَّكَّبٌ من سببٍ ووَتِدٍ وفاصلةٍ". هذه هي أجزاءُ الشعرِ الأوائِل. وكلُّ منها مرَّكَّبٌ من سكوناتٍ وحركاتٍ متضامَّةٍ في كتلة صوتية واحدة. هذه الكتلة وَصَفَهَا "الشريف الحسيني" - رحمه الله عليه - وصفاً دقيقاً بقوله إنها لا "تتبعَّض"، يعني لا تتجزأ، وإن كانت مرَّكبة من أجزاء، يعني أن تجزئها أو أجزاءها تعنى الناظر في علم الأصوات ولا تعنى الناظر في علم الشعر، الذي هو العروضُ فيما نحن بصدده. هذه الكينونة، أو الكينونات، لكلِّ منها وقعٌ في الأذن العربية، وربما في غيرها أيضاً أحياناً. فإذا طلبنا صفةً لهذا الوَقْعِ مستقلاً مجرداً فماذا نجد؟ أعنى عندما 'نعلو' - ولندكر ما جاء في 'ابن جني' عن 'العلو' فيما سبق - متجاوزين الدلالة اللغوية للألفاظ الممثَّلة لتلك الأجزاء الأوائِل. نجدُ السبب الخفيف كأنه نقرَةٌ واحدة، 'تتم' - لكنَّ لها تميَّزها مع كونها واحدة - ونجد الوتدَ المجموع نقرتين على نحو خاص 'تتم'، ثم نجد الفاصلةَ الصغيرةَ ثلاثَ نقراتٍ على نحو خاص 'تتم'. وكأننا نصغى حينئذٍ إلى 'موسيقا' خالصة. لكنَّ هذه الموسيقا التي كأنها خالصةٌ ليست هي الشعر. إن الشعر مختلفٌ جدًّا. وإنما هذه الأجزاء الأوائِلُ مقدَّمةٌ ليس إلا له، أو تمهيدٌ يشبهه في وظيفته وظيفَةَ الحرف المتحرك - مجتمع السكون والحركة - في كونه - كما قال صاحب الخزرجية - أولَ النطق. وإنما هي الشرطُ الأولُ للشعر. ولما كانت اللغةُ برمتها هي ما بعد الحرف المتحرك، فكذلك الشعرُ برمته هو ما بعد السبب والوتد والفاصلة.

هل آنَ الآنَ بعد هذا القدر من التفصيلِ أوانَ تعريفِ الإيقاع،
أعنى الإيقاع في الشعر العربي؟ فلنحاول.

"الإيقاعُ أثرٌ سائغٌ واقعٌ في الوجدان تحدّثه كتلةٌ صوتيةٌ منطوقةٌ،
ذاتٌ مدىٌّ يضيق حينًا حتى يكون بقدر السبب الخفيف، ويتسع
حينًا حتى يكون بقدر بيتٍ من "الطويل"، أو مما يضارعه طولًا". لكنّ
هذا لا يكفي لأنه يُعْغَل "القافية" وفعلها في اللحن أو الإيقاع لا يقلّ
خطرًا عن فعل الوزن. ثم إنه يُعْغَل كذلك الأثر الحاث من توالى
الآبيات المقفاة منشئةً بنيةً ذاتَ وقعٍ إجماليٍّ مضافٍ عند نهاية المطاف
إلى وقع كل بيتٍ على حدة.

وصدق الذي قال "الشعر صعب"! ومن صعوبته أن تعريفنا قد
يردُّ عليه استدراك. فمما يُؤخذ منه أن النثر أيضًا قد يكون له ضربٌ
من الإيقاع، إذ إن الأجزاء الأوائِلَ داخلةٌ بالضرورة فيه وكلٌّ منها
إيقاع. والردُّ أنه لا بأس بهذا. إن هذا الضرب من الإيقاع النثرى
إحدى مزايا العربية، لكنه لا يرقى إلى الإيقاع الشعري، لأن الإيقاع لا
يكون شعرًا إلا إذا آلت الأجزاء إلى "نمط"، أى إلى رسمٍ يمثُلُ في
المخيّلة قادرٍ على أن يهزّ النفس هزًّا يحسّه كلُّ ذى حسّ. وأقصى ما
يمكن أن تتولّى إليه الأجزاء الأوائِلَ أن تتركّب بحيث تنشأ من تركبها
الأجزاء الثواني، التي هي بمصطلح العروضيين "التفاعيل"، والتفعيله
مستقلةٌ إيقاعٌ، هذا أمرٌ لا شك فيه، يمكن تبيُّنه بالنقر، لكنها كذلك
لا تقوى على أن تتولّى إلى نمطٍ ما بقيتْ عُرضةً لفوضى النثر. في النثر

يمكنك أن تجمع بين "فعلون" و"مستفعلن" مثلاً، لكن الأنماط الشعرية تأتي هذا الجمع. والأنماط الشعرية هي المنصوص عليها في علم العروض، المسمّاة بالبحور، والقابلة لأن يُضاف إليها غيرها بالاختراع.

والسؤال الآن ما معيار النمطية، بم نُثبت نمطاً وننفي آخر؟ والجواب الذي أوقن أنه لا جواب غيره، والذي قد يرى العقل التحليلي أو الرياضي أنه غير كافٍ، هو "الذوق" أو "الفطرة" التي ردها عبدالله الطيب ردّاً لم يكن يليق به، مؤثراً عليها الزعم بأن العرب استعاروا أنماطهم أو بحورهم من يونان.

وبقى شيء في مسألة الإيقاع مهم جداً. يقال إن من خصائص الإيقاع التكرار. والعربية لا تأتي هذا القول. إن الناظر المتأمل في مشتقات مادة "وقع" يمكنه أن يلحظ في يسر صفة التكرار. جاء في "اللسان": يقال سمعت وقع المطر، وهو شدة ضربه الأرض إذا وبّل. ويقال سمعت لحوافر الدواب وقعاً ووقوعاً. ووقيعه الطائر، وموقعته - بفتح القاف - موضع وقوعه الذي يقع عليه ويعتاد الطائر إتيانه. والتوقع تنظر الأمر... وهذا المعنى المستنبط استنباطاً في العربية منصوص عليه نصّاً في غيرها. جاء في معجم 'وبستر' مثلاً في تعريف الإيقاع [راجع مادة rhythm] إنه 'تعاقب متكرر منتظم...'

ما الذى يتكرر، وكيف؟ النظرة العجلى لرسوم الأبحر في كتب
عروضنا توحى بأن هناك شيئاً مّا يتكرر. فلننظر - على سبيل المثال
- في محاولة الجواب في البحر البسيط:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

هذه صورته في الدائرة. أى هذه صورته الأصلية. وواضح من
الرسم تكرر "مستفعلن" وتكرر 'فاعلن'. وإذا صحّ أن التكرار من
خصائص الإيقاع فإن هذا الرسم الذى بين أيدينا مُعبّر عن إيقاع لا
شك فيه، لكن هذا اليقين ينهارُ بالنظرة المتأملّة في تاريخ الشعر العربى
كلّه. إنّنا لا نجدُ في ذلك التاريخ العريق بيتاً واحداً يمكن أن يصدق
عليه هذا الرسم في انتظامه الحسابى الدقيق⁽¹⁾. أمّا الإيقاعُ الحقُّ
فصورته الحقُّ هي ما يلى:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعِلن

هذه هي الصورة التي اعتمدها الشعراءُ العرب طوَال الحقب
المتوالية منذ الجاهلية حتى اليوم. وهي شاهدةٌ على انهيار التكرار
بسقوط الثانى الساكن من التفعيلة الأخيرة، أو ما يُعرف عند أهل

(1) نبهني أحمد مهران، أحد أصحابنا، إلى أن عند الأعشى بيتاً من البسيط الأصلى هو قوله:

ولا تكونى كمن لا يرتجى أوبةً لذي اغترابٍ ولا يرجو له رجعا

العروض بالخبث. والسؤال الآن الذى يصعب جدًّا جوابه هو ما الذى فعَّله ذلك التغييرُ الهينُ جدًّا فى هذا الرِّتَلِ الصوتيِّ فقَلَبَه من "ثَقِيل" جدًّا إلى "سَلِسٍ" جدًّا؟!

أليس هذا غريبًا؟! والأغربُ أن التكرارَ يغيبُ أحيانًا غيابًا باتًّا ولا يغيبُ الإيقاعُ أو "الوزن". خُذْ مثلاً مُجَلِّعَ البسيط "مستفعلن فاعلن فعولن". فهذه كينونةٌ عروضيةٌ سائغةٌ لا ينبو عنها الذوق. ومع ذلك فهي جماعٌ ثلاثٌ تفعيلات كلُّ منها قائمٌ برأسه. فإذا قلنا إن 'الكامل' مثلاً تنشأُ موسيقاه من تكرر 'متفاعلن' فمِمَّ تنشأُ الموسيqa فى 'المخلِّع' وقد تخلَّع. كيف صار كينونةً واحدةً وهو كما يدلُّنا الرسمُ كأنه يسير على هواه بلا رسن؟!

ومما يلحق بالتكرار فى مسألة الإيقاع ما يُسمَّى بالتناسب، أو التجاوب. رأى بعض النُّظَّارِ المُحدِّثين فى العروض أنه إحدى خصائص الإيقاع. مثال هذا زعمُهم أن إيقاع 'الطويل' مثلاً قائمٌ على قسمته إلى:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

أو إلى التطابق بين التفعيلة الأولى والثالثة، وبين الثانية والرابعة. أو بين التفعيلتين الأولى والثانية مجتمعتين، والثالثة والرابعة مجتمعتين.

أو إلى كون الوتد المجموع قائمًا أول كلِّ تفعيلة.

يُطل الزعمين الأول والثاني أن الطويل، كما يدلنا تاريخ الشعر العربيّ كلّ عروضه مقبوضةً دائماً. أي أنّ صورته في الاستعمال - ولا عبرةً بالتصريح أول القصيدة إن وُجد:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

أي لا تطابق بين الثانية والرابعة.

ويُطل الزعم الثالث أن القسمة العروضية المقررة للطويل ممكنة لا واجبة، أعني يمكن أن ينقسم البحر قسمةً أخرى مخالفةً لكنها صحيحة، فيُرسم البحرُ كما يلي:

فعولن فعولن فاعلاتن مفاعلن

وفي هذا الرسم الصحيح بلا شك يتخلف الوتد في الثالثة ليحلّ محله سببٌ خفيفٌ. وإنك لرأيته متحقّقاً في مطلع جيمية ابن الرومي:

أمامك - فانظر أيّ نهجيك تنهج طريقان شتى، مستقيمٌ وأعوج

وتقطيعه على الرسم غير المعهود:

أمامك فانظر	أيّ نهجيّ	كتنهج	طريقان شتى	مستقيمٌ	وأعوجو
فعول فعولن	فاعلاتن	مفاعلن	فعولن فعولن	فاعلاتن	مفاعلن

وإِذَنْ نَحْلُصُ مِنْ هَذَا الْقَدْرِ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَسْأَلَةِ إِلَى أَنْ الْإِيقَاعَ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِالتَّكْرَارِ وَلَا بِالتَّنَاسُبِ. وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يَصْدُقُ عَلَيْهِ مَا ارْتَاهُ ابْنُ رَشِيقٍ فِي مُفْتَتِحِ "الْعَمْدَةِ". قَالَ:

"ليس للجودة في الشعر صفة، وإنما هي شيء يقع في النفس".
وأقول محاكيًا:

ليس للإيقاع في الشعر صفة، إنما هو شيء يقع في النفس. ولن يستطيع تحليل مهمما دق أن يكشف عنه إلا القشور. ولا تعجب؛ مُلِكَ اللهُ كُلُّهُ عَجَبٌ. أَمَّا إِذَا رَاعَكَ مَا قَلْتُ فَأَنْصَحَكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى كِتَابِ "فَلْسَفَةِ الرِّيَاضَةِ" لِمُحَمَّدِ ثَابِتِ الْفَنْدِيِّ، وَهُوَ أَسْتَاذٌ مَتَخَصَّصٌ فِي عِلْمِ الرِّيَاضَةِ وَالْفَلْسَفَةِ. عُنِيَ - ضِمَّنَ مَا عُنِيَ بِهِ مِنْ مَسَائِلَ رِيَاضِيَّةٍ، بِدَرْسِ نَشْأَةِ 'الْعَدَدِ' فِي الْعَقْلِ، وَبَعْدَ أَنْ طَوَّفَ مَعَ آرَاءِ الْعُلَمَاءِ فِي الْمَوْضُوعِ عَرَّضَ لِرَأْيِ رِيَاضِيِّ الْأَمَانِيِّ كَبِيرِ هُوَ "كِرُونَكِر" لَمْ يَرُضَ عَنْهُ. قَالَ كِرُونَكِرُ إِنْ الْعَدَدُ تَنْزَلَ إِلَى عَقْلِ الْإِنْسَانِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. قَالَ الْفَنْدِيُّ هَذَا لَاهُوتٌ. وَبِهَذَا نُفِي الرِّيَاضِيُّ الْكَبِيرُ مِنْ عَالَمِ الرِّيَاضَةِ كَأَنَّهُ لَيْسَ رِيَاضِيًّا وَلَيْسَ كَبِيرًا. أَجَدْنِي مَوْقِفًا بِأَنَّ الْأَمَانِيَّ لَمْ يَقُلْ مَا قَالَ إِلَّا بَعْدَ نَظَرٍ فِي كُلِّ الْوُجُوهِ الْمُحْتَمَلَةِ لِلتَّفْسِيرِ وَرَأَى فِي كُلِّ مِنْهَا شَيْئًا مِنَ النِّقْصِ أَوْ الْعَيْبِ دَفَعَهُ دَفْعًا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

لا أقول هذا ظنًا، بل أقوله يقينًا، ودليلي كتاب "الفندى" نفسه. أخبرنا في ختام كتابه أن الفرنسي 'بوانكاريه' حكّم بأنه لا

سبيلَ إلى التوفيق بين الآراء المتصارعة في ميدان علم الرياضة بشأن مسائلها العويصة، لأنه لا سبيل إلى التوفيق بين أصحاب المذهب العقلي وأصحاب المذهب الحسّيّ [راجع ما سبق بشأنهما]، وبوانكاريه الذي قرّر هذا أحد كبار علماء الرياضة والطبيعة في العالم؛ وَصَفَه كاتب سيرة "أينشتين" بالعظيم بوانكاريه، مع أنه ظل حتى مات معارضًا نسبيّة أينشتين، وهو إذنٌ رجلٌ لا يُستهان برأيه، لكن يبدو أن الرياضيّ المصريّ لم يُؤلِّهِ ما يستحق من اهتمام، ولولا هذا ما استخفّ بما قاله كرونكر، لأن ما قاله الألمانيّ والفرنسيّ شَرَّحَ وَاحِدٌ - إن جاز لنا استعمال كلمة ابن جنّي هنا. أي أنهما يَصُدْران عن رؤيةٍ ثابتةٍ واحدةٍ؛ المادّة موجودةٌ، هذا مُسَلَّمٌ، وكلّ ما هو مادّيّ يقبلُ التحليلَ المادّيّ، أو الحسّيّ، إلى أجزائه الأوائل، لكن ما العملُ إذا كان ما نحن بصدده غيرَ مادّي، حينئذٍ يُخَفِّقُ التحليل في الوصول إلى جَدْوَى.

هذا هو ما نحن فيه فيما يتعلق بقضايا الشعر العربي، واللغة العربية على وجه العموم. هناك ما يجري على الألسنة، وهو مادة، لهذا يقبل التحليل وقد حُلِّلَ تحليلاتٍ دقيقةً كلّ الدقة عبّرت عنها علومُ العربية أبلغَ تعبير، لكن العلماء العرب، في رؤية ثابتة، أبصروا الشاطئ الآخر وأدخلوه في اعتبارهم وهم ينظرون إلى المادة ويُجِيلون فيها حِسَّهم، ساروا معها حتى أسلمتهم إلى الأصل الأصيل ووجّحت بهم عالم الروح، فانكشف لهم من أمر اللغة والشعر ما لم يكن منكشفًا

إلا بتلك الرؤى الثواقب في أصول الكليم، وأصول النحو، وأصول العروض، وأصول البلاغة.

رأى العقل العربيّ، أو العلم العربيّ، أن المادة لا غنى عنها، أو عن تحليلها في محاولة فهم العالم، وحللها، وكان من نتائج التحليل أو التحليلات أن عرفت الثقافة العربية نهضة في علوم المادة، كالطبيعة والكيمياء والأحياء والطب، وكذلك في علم الرياضة والفلك، وهى النهضة التي يُقر علماء الغرب بأنهم أفادوا منها، وأنها كان لها الفضل في استنقاذ العالم الغربي من ضلالات العصور الوسطى، أو عصور الظلام كما سمّوها.

وكان من علوم المادة عند العرب كذلك "علم الأصوات اللغوية"، الذي أعملوا فيه التحليل وبلغوا في دقته أن وصلوا إلى نتائج ومعرفة لم يصل إليها الغربيون إلا عن طريق المعامل. أعمل العرب الحسّ، لكنهم أعملوا معه العقل، وبهذا رأوا في العربية أموراً صحيحة لم يستطع غيرهم رؤيتها، وتحاشوا أخطاءً لا تزال قائمة في أذهان المستشرقين لا تريد أن تزول. من ذلك أن الألماني 'فايل' مُصِرٌّ على أن الوتد المجموع جزآن، أولهما ما يُسمى بالمقطع القصير والثاني بالمقطع الطويل، وهو غلطٌ شنيعٌ وجهلٌ بطبيعة العربية وطبيعة الشعر العربي مُطَبَّقٌ. على حين أن عروضياً عربياً فذاً هو الشريف الحسيني نصّ على أن الأجزاء الأوائل للشعر العربي، أى السبب والوتد

والفاصلة، لا تتبعض، منذ زمان بعيد. أئى أن كلا منها وحدة قائمة برأسها برغم تركبها من أجزاء. [راجع: العيون الغامزة]

ليس "فايل" وحده هو المصر، بل يُصر معه المستشرقون جميعًا، قدماءً ومحدثين. بين يديّ الآن كتاب مترجم عنوانه "التراث اللغوى العربى"، لثلاثة من المستشرقين المحدثين، شاهدٌ على تخطيطهم وحيرتهم بشأن الموضوع. عالجوا العلم فى الفصل السابع مصرّحين فى بدايته بأنهم يحاولون "نفهم" ما سمّوه بنظرية العروض العربىّ، مقرّرين أنه يبدو 'مُربكًا'، واعتلّوا بأنه لم يلجأ إلى "مفهوم المقطع" و"لم يستعن بمفهوم النبر الوزنى (الارتكاز). وقد أزعج هذا الأمر كثيرًا من الناس". ولَمَّا أرادوا أن يتخلّصوا من 'الإزعاج' قطعوا "فاعلاتن" - مثلًا - إلى "فا/ع/لا/تُنْ بدلاً من فا/علا/تُنْ"، وهو تقطيع مفسد للوقع أو الإيقاع أو الوزن أو البحر إفسادًا بيّنًا لكل ذى ذوق، وهو مضيّع - من ثمّ - للجمال الذى هو غاية الشعر. أمّا مسألة "النبر" فقد أشبعناها بحثًا فى غير هذا المقام.

يجب أن يكون المحلل على ذُكر دائمًا من أنه يحلّل أصواتًا منطوقَةً فى "شعر" لا أصواتًا مجردة. الأصواتُ المجردة تأتينا بصفات للحروف، لكنّ الذى نحن فى طلبه صفاتُ العناصر المؤسسة للشعر. قال أبو العلاء "نبّئاني"، فما الذى نطق به فى بيته؟ وما الذى يسمعه من يقع فى سمعه ذلك البيت؟ /نَبْ/ هذا هو القسمُ الأول الذى يفرض نفسه فرضًا على المتدوّق - محلّلاً أو غير محلّل - وهذا القسم الأول

مستحيل أن يتبعَّض، فين فصلَ الحرفُ المتحرك عن الحرف الساكن، لا في شعر ولا في غير شعر. ثم إذا تقدّمت وجدت نفسك مجبراً على النطق بالوتد المجموع مجموعاً /بئاً/ أى كتلةً صوتيةً واحدة، يصدق عليها ما صدق على السبب الخفيف الأول، أى لا تَبْعُض. وإذا زعم المستشرق أن الذى جاء به ليس خطأً لأنه مقررّ في علم "الأصوات" قيل له: المقررّ في علم الأصوات "عام"، ونحن عند النظر في الشعر وشأنه في طلب "الخاص". ولا يستقيم النظر إذا أهمل الفرق بين العموم والخصوص. بل قد يؤدي ذلك الإهمال إلى ضلالاتٍ إحداها ما وقع فيه "فايل" ومن لفّ لفّه من العرب المحدثين. نحن في الشعر نبغى إدراك "اللحن" لا إدراك صفة الحرف. ولأن الشعر غير النثر وجب اختلاف القسمتين. القسمة "الأصواتية" عامة، أما القسمة "الشعرية" فأمّر يخصّ تلك اللغة الخاصة التي نسميها لغة الشعر، والتي يميّزها في كل لغات الأرض أنها موزونة، أى قائمة على ضربٍ ما من ضروب الإيقاع، أساسه الأول في العربية السبب والوتد والفاصلة، وليس ما سمّاه علماء الغرب، وعلماء الأصوات، بالمقاطع القصيرة والطويلة. قلتُ "في العربية"، أى في اللغة كلها، شعراً ونثراً، لا في لغة الشعر فقط. وهذا أحد أسرار العربية، بل ربما كان سرّها الأعظم، أو قانونها الأول، الذى هو - عندى - لا تفسير له إلا أنه صيغ في "السماء" لا في 'الأرض'، أنه - كما قلتُ في البيان الأول - من أمر الخالق. أمر الله العربى بأن ينطق هكذا: أن يجمع بين السكون والحركة فيما سمى بالحرف المتحرك. ثم أن يجمع بين الحرف المتحرك والحرف

الساكن فيما سُمي بالسبب الخفيف. ثم أن يجمع بين حرفين متحركين وثالث ساكنٍ فيما سُمي بالوتد المجموع، ثم أن يجمع بين ثلاثة أحرف متحركةٍ ورابع ساكن فيما سُمي بالفاصلة الصغرى. وهكذا سائر الأوامر التي أنتجت أجزاء اللغة الأولى، والتي حَصَرها علم العروض في ستة. وأنت الآن مدعوٌّ لأن ترفع عنك غشاوةَ الإلفِ وتأملَ هذه الإلزامات، لتتوقن باستحالة أن تكون ناشئة من "الحسِّ" أو من فعل مصادفةٍ ما، ولتتوقن أيضًا أن مسألة "الشعر الحر" أبعد من أن تكون مجردَ دعوى "أدبية" أو "نقدية"، مما اعتيد تسميته بقضايا النقد والأدب. إنها مسألة اللغة العربية في الصميم، شعرها ونثرها. وعليك أن تذكرَ كلمة "أبي على" لصاحبه "ابن جني" بشأن مسألة التوقيف والوضع لما قال له قاطعًا إن العربية "من عند الله"، وأن تضيفها إلى رأى "كرونكر" و "بونكايه" حديثًا، وإلى رأى "إفلاطون" قديمًا. وعليك أن توقن أخيرًا بعد النظر المتأمل في هذا كله أن لغتنا وُجدت لتبقى، وأن شعرها الذي صابَرَ الزمانَ ألفى عام على الأقل إنما هو كذلك وُجدَ ليبقى. وأن شيوع الشعر الحر في العالم العربي المعاصر إنما هو غاشيةٌ في طريقها حتمًا إلى الزوال. قلتُ إننا في الشعر نبغى إدراك "اللحن"، أو الإيقاع. ولكني قلتُ كذلك استدراكًا على مقرّرات العروض إن الأجزاء الأوائل، السبب والوتد والفاصلة، هي أساس الإيقاع الأول في اللغة كلها لا في الشعر وحده، أي إن هذا الإيقاع الأول "عام"، وإذْناً وَجَبَ السؤال عن الإيقاع الأول "الخاص" بالشعر. علينا لنصل إلى الجواب الصحيح أن نستبعد كل ما هو

"عام" لنرى ماذا يبقى عندنا. أما الأجزاء الأوائل المنصوص عليها في العروض فهي "عامّة" بلا ريب. نخذُ مثلاً قوله تعالى - ومن المقرّر أن القرآن نثر - أول سورة "الإخلاص": "قُلْ هو الله أحد"، مثلاً للغة كلها، فماذا نرى؟ إننا نرى في وضوح باهر قابلية الآية لأن تُحلّل إلى إيقاعاتنا الثلاثة: "قُلْ" "هُوَ" "لا" "هُأَحَدٌ". القسم الأول يعادل السبب الخفيف، والثاني يعادل الوتد المجموع، والثالث يعود بنا إلى السبب الخفيف، والأخير يعادل الفاصلة الصغيرة. وإذن هذه الإيقاعات الثلاثة ليست مطلبنا لأنها لا تخصّ الشعر وحده.

ثم إننا نجد شيئاً آخر بعد، أن هذه الإيقاعات الثلاثة قابلة لأن تجتمع على أنحاءٍ مختلفة فيما سُمّي في علم العروض بالتفاعيل، وهي التي نُصّ في العلم على أنها ثمانية في قول أو عشرة في قول. هذه التفاعيل هي كذلك إيقاعات، بل إن "الإيقاعية" فيها أوضح منها في الأجزاء الأوائل. ويسيرُ علينا إدراكُ أن هذه الإيقاعات المتولّدة من بطن الإيقاعات الأوائل هي كذلك "عامّة". ولنرجع إلى سورتنا: "قُلْ هُوَ لَلا"، فهذه كتلةٌ صوتيةٌ تعادل "فاعلاتن". ثم يبقى لنا من الآية ما يعادل الفاصلة الصغرى "هُأَحَدٌ". ويمكنك أن تتابع السورة وكلّ سورة، وكلّ كلام عربيّ على هذا النحو من التحليل ليثبت عندك أن هذه الإيقاعات الثواني هي كذلك "عامّة". ها نحن أولاء نرى أن هذين النوعين من الإيقاع ليسا من "خصائص" الشعر. ولم يبق لنا إذن شيءٌ ننظرُ فيه لنصل إلى بُغيتنا إلا الشعر نفسه. وأنت هنا

مدعوً لأن تَرنُوَ وأن تطيلَ الرُنُوَ - أعنى بعقلك - فى أى بيتٍ تجعُله موضعًا للفحص من أجل اكتشاف الصفة الإيقاعية المميّزة للبيت، والمميّزة من تَمَّ لكل بيت مناظر. ولنضربُ مثلاً البيت الشهير:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ ...

يخبرنا العروضيون أنه قابلٌ للتحليل، أو بلغتهم، للتقطيع على الصورة الآتية:

قفا نَبَّ	كمنذُكُرا	حبيبين	ومنزلى
فَعولن	مفاعيلن	فَعولن	مفاعِلن

والسؤال المهم الآن الذى دعانى إلى أن أطلب منك أن تكون شديد الانتباه فى نظرك هو؛ ما الذى نخرج به من هذا الرسم؟ إن لدينا سلسلة صوتية افترض أنها تتكون من حلقاتٍ غير متساوية. أذكرك بما قلته فيما سبق بشأن التكرار والتناسب، ثبت أنهما غير مؤثرين فى الإيقاع. وإذن لسنا بإزاء تكرار أو تناسب ولو كان أحدهما هناك ما كان له فعل، فما الذى نحن بإزائه؟ وما الذى له فعل؟ قلتُ لك فى بداية هذه الكلمة التى كأنها طالت إننا ننظرُ فى مسألة لا مناصَ من أن ننتهى فيها إلى قرار. فاعلمُ الآن أننا نوشك أن نبلغ غايتنا. والآن مطلوبٌ منك أن تتجاهل علمك بالعروض، وبكل ما يقال له "تفاعيل"، وأن ترتفع لترى ما ليس فى رؤيته أدنى خلاف.

لدِينَا عِبَارَةٌ. ولدِينَا إجماعٌ عَمْرُهُ أَلْفَا عَامٍ، عَلَى الأَقْل، عَلَى أَنْ هَذِهِ العِبَارَةُ "شَعْرٌ". فَعَلِينَا بَعْدُ - اَعْتِبَارًا وَاحْتِرَامًا لَدَلِك الإِجْمَاعِ القَدِيمِ الحَدِيثِ - أَنْ نَسْأَلَ عِلْمَاءَنَا طَوَالَ هَذِهِ الدَّهُورِ مَا الَّذِي جَعَلَكُمْ مَطْمَئِنِّينَ هَكَذَا إِلَى أَنْ العِبَارَةُ "شَعْرٌ"، بِمَ كَانَتْ "شَعْرًا"، وَمَاذَا نَرُدُّ عَلَى مَنْ يَزْعُمُ - غَيْرَ مَعْتَبِرٍ أَوْ مَحْتَرِمٍ للإِجْمَاعِ - أَنَّهَا لَيْسَتْ "شَعْرًا"؟

أغلبُ الظن أنه لن يكون عندهم إلا جوابٌ واحد: التقطيع. هذه القسمة المرسومة أمام أعيننا، هذا الواقع المحسوس الذى نطابق بينه وبين أى بيتٍ من "الطويل" فينطبق. قلتُ: هذه الحجة قائمة على مغالطة؛ على أن العبرة بالرسم، لكنها تتجاهل أن هذا الرسم رسمٌ لشيء. ونحن فى طلب هذا الشيء لا فى طلب صورة له "ممكنة"، كما قلتُ من قبل. ماذا كان ذلك "الشيء" قبل أن يتقطع على هذا النحو أو ذاك؟ أليس شيئاً؟ بلى. فمن حق العقل علينا أن نسأل: ما هو؟ ثم أليس "كُلًّا"؟ بلى. فما حقيقة "كُلِّيَّته" تلك؟ هنا يخطرُ لى، وحسنٌ أن يخطرَ لك أيضاً، أن الألمان لديهم كلمةٌ تنفعنا هنا لأنها تزيحُ بعضَ غموضِ المسألة، هى قولُهُم فى معنى "الكل" أو "الكليّة": "gestalt" "جشتالت". وهم يرون أنها فى مثل هذا السياق لا يصح أن تترجم. [راجع المادة فى York German Dictionary] كأنهم رأوا فى دلالة الكلمة هنا شيئاً يتجاوزُ الكلَّ الرياضى، أى

القابل للحساب، أو الجسمانيّ القابل للتحليل، إلى ما يمكن أن نسّميه بالكلّ "النفسانيّ".

تلك هي المسألة. إن الذي قاله امرؤ القيس يتجاوز ذلك الرسم، وكلّ رسم آخر ممكن. إن ما ابتعثه إلى القول فلبّي شيءٌ أسمى، شيءٌ "علويّ"، كذلك الذي رآه الصرفيون في "الأوزان" الحاكمة للكلم العربيّة، وكالذي رآه ابن جنّي في اشتقاقه الأعلى من الاشتقاق المعتاد، شيءٌ لا بأس بأن نتابع الألمان في تسميته "جشتالت". شيءٌ هابط - بعبارة ابن سينا - من "المحلّ الأرفع"، أو فلنقل كما قال "أبو عليّ" من عند الله.

وكأنا بلغنا أخيراً بغيتنا، وانتهينا إلى "القرار" المأمول. الشعْرُ العربيّ مرّكب كما قال العروضيون من سبب ووتد وفاصلة، وتلك أجزاءه الأوائل، وهي إيقاعات، لكنها إيقاعات "عامّة" لا "خاصّة" بالشعر. ومنها تركّبت "التفاعيل"، وهي إيقاعات، لكنها كذلك "عامّة" لا "خاصّة".

أمّا الخاصّ بالشعر، الفيصلُ بينه وبين النثر، فهو ما سمّاه الخليل بالبحر. وكما ثبت أن الإيقاعات الأوائل لا تتبعّض، فكذلك الإيقاعات الثواني "التفاعيل" لا تتبعّض، وكذلك إيقاعات البحور، لا تتبعّض، إنّها 'جشتالتات' أو قُلْ 'وجدانات' يعجز كل تحليل عن تفسيرها، لأن التحليل منوطٌ بالمادة، والوجدان ليس بمادة؛ إنه حركة

النفس العربية عند الجيشان؛ إنه "الطبيعة"، إنه "الخلقة"، إنه "الفطرة"،
ولا زوال له - من يَمَّ - إلا إذا اختلَّت النفوسُ أو أُمَّ بها لَمَم. ومعنى
أنه لا زوال له أن السعى إلى إزالته "خطيئةٌ سياسية"، لأنه محاولة لهدم
"البنية" القومية المتمثلة قبل كل شيء في اللغة كلها نثرها وشعرها
وقرآنها.

ارتعاشة

أَرَعَشْتُ أَصَابِعِي وَالْعُمُرُ صُلْبُ السَّاعِدِ؟
سَلِمْتِ لِي، يَا غَضَبًا عَلَى الْوَجُودِ الرَّاكِدِ
عَلَى الرِّجَالِ اسْتَسَلِمُوا، عَلَى الْإِبَاءِ الْخَامِدِ
عَلَى جَمْعِ سَفَهَتْ يَوْمَ رِشَادِ الرَّاشِدِ
عَلَى تَسَاوِ الْحُقِّ السُّفْلَةَ بِالْأَمَاجِدِ
عَلَى تَعَزُّبِنَا بِتَذْكَارِ صَالِحِ بَائِدِ



قد كنتُ راجياً غدي، فكأذ لا يُرجى غدي
أعافُ كوبًا في يدي ناءتُ بِجَمَلِها يدي
أن تتحدَّى جَلدي توافه الشدائدِ
أن تعرفَ البُكاءَ بَعْدَ مَفْتِهِ قصائدي
أن أسلِمَ النفسَ على رَغْمِي لِعَظْفِ باردِ
أن يستجيزَ رقدَه الموتى طموحُ الماردِ
سلِمَتِ لي في حَالِكِ مُشْتَجِرِ المقاصدِ
عونًا على آتٍ يزيدُ فيه فَمَدُّ الفاقدِ
سَلِمَتِ، يا أَبْرَ مَنْ والدةٍ ووالدِ

* * *

أَعْلَمُ أَنَّ نُفْرَتِي مِنْ خَدَمِ المَقْاصِدِ
وَمِنْ سَدَادِ هُو دَعْوَى مُسْتَرِيحِ قَاعِدِ
وَمِنْ تَشَابُهٍ سَرَى فِي أَعْيُنِ هَوَامِدِ
وَمِنْ فَتَاوَى لَيْسَ يُضْنِيهَا اجْتِرَاؤُ السَائِدِ
أَدْتِكِ، لَكِنْ مَا احتيالي في فؤادِ سَاهِدِ
وَفِي زَمَانِ مُبْهَمِ مُسْتَكْرَهِ المَوَارِدِ
لَكِنِّي أَلْمَحُ نَارًا فِي الظلامِ الصَاعِدِ

يُنْأَى بِهَا وَهْنُ الرَّفَاقِ عَنْ عَيُونِ الرَّائِدِ
حَتَّى إِذَا مَا شَرَدَ اللَّبُّ صَحَا فِي الشَّارِدِ
شَيْءٌ تَحَامَّتْهُ دِمَاءُ رَاكِعٍ وَسَاجِدِ
وَأَنْشَبَتْهُ فِي عُرُوقِي ثَوْرَةٌ مَوَاجِدِ
أَحْسُهُ أَصْلَبَ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ الرَّاصِدِ
يَوَدُّ لَوْ يَوْمًا يُلَاقِي أَلْفَ نَدٍّ صَامِدِ
وَالْقَبَسِ الْوَاهِنِ شَمْسًا جَمَّةَ الرَّوَافِدِ
فَارْتَقِي أَصَابِعِي، وَاحْتَمِلِي، وَجَالِدِي



حصار

صَاحِبُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا مُسْتَرَاخَ ، كَأَنَّ الْهَدِيرَ مَعِيَ يَقْطُنُ
وَدَعْتَنِي الْمَآذِنُ ، لَكِنَّ رُوحِي مِنْ عَصْفِ أَبْوَاقِهَا تَشْطُنُ
وَسُئِلْتُ فَحُوصِرْتُ كَيْلًا أَفْكَرَ : أَلَدَّيْنِ أَبْقَى أَمِ الْمِوْطِنِ
وَالْإِذَاعَاتُ تَدْوِي ، وَيَزْعَقُ نَاسٌ بِلَا مُوَجِّ ، طَنَّنُوا ، طَنَّنُوا

وَسَطَ هَذَا الضَّحِيحِ هُدُوهُ يُفَكِّرُ كَيْفَ نَمُوتُ وَلَا نَقُطُنُ
كَيْفَ نُذْعِنُ شَيْئًا فَشَيْئًا لِأَنَّ يَطْرُدَ الْمَالِكِ الْأَرْضَ مُسْتَوْطِنُ
وَمُحْسٌ كَأَنَّ أَمْرًا الْقَيْسِ حِينَ نَطَالِعُ دِيْوَانَهُ يَرْطُنُ
وَكَأَنَّ جَلَائِبِ أَبْنَاءِ يَعْرَبٍ - وَهِيَ مُعَطَّرَةٌ - تَعَطُّنُ
ضَلَّ يَا خَارِجِينَ عَلَى الْحَاكِمِينَ مُبِينٌ لَنَا غَيْرَ مَا يُبْطِنُ
فَلْتَكُونُوا رِجَالًا رِجَالًا وَكُونُوا مَلَائِكَةً بَعْدُ أَوْ شَيْطَانًا
كُنَّا فِي الْهَوَانِ سَوَاءً ، فَإِنْ شِئْتُمْ الْهُونَ أَضْحَمَ فَاسَلِّطْنَا
وَطَّنَ النَّفْسَ أَبِي عَلِيٍّ أَنْ تَعَزَّ ، فَيَا أَدْعِيَاءَ الْعُلَا وَطَّنُوا



لَكَ عَيْنٌ فَأَبْصِرِي

إلى ريمان

كَفَفِي الدَّمْعَ، لَنْ يَزِدَّ العَوَادِي أَسْفُ مِنْ شَجِيَّةٍ، أَوْ شَجِيٍّ
وَأَطَّلِي عَلَى الزَّمَانِ عُقَابًا، وَأَنْفِرِي مِنْ وَدَاعَةِ القُمْرِيِّ
وَتَعَنِّي بِهَمِّ نَفْسِكَ، لَكِنْ لَا تَوَلِّي عَن هَمِّنا الأَصْلِيِّ
لَكَ عَيْنٌ، فَأَبْصِرِي نُوْحَ بَاكِ، وَبَوَاكِ، فِي المَأْتَمِ اليَوْمِيِّ
لَكَ عَيْنٌ، فَأَبْصِرِي مَا نُلَاقِي تَحْتَ نِيرِ التَّقَدُّمِ العَرَبِيِّ
يَا ابْنَتِي، يَا ابْنَةَ المَرْوَةِ والحِكْمَةِ والمَجْدِ والهَدَى النَّبَوِيِّ

إِنَّمَا أَنْفُسُ الْأَنْبِيَاءِ سَبَاعٌ يَتَفَارَسُنَ، بِالْقَنَا وَالْقَسِي
 وَبِأَقْوَى مِنَ السَّلَاحِ، بِدَيْنِ، وَلِسَانٍ - مُجَاهِدَيْنِ - وَزِيٍّ
 فَإِذَا انْفَكَّتِ الْعُرَى فِي فَرِيقٍ ضَاعَ حَتْمًا، فِي الْعَيْلِمِ اللَّحْيِيِّ
 وَالَّذِي لَا يُعَدُّ مَا يَرْدَعُ الْبَغْيِ - بِدَعْوَى السَّلَامِ - أَعْبَى عَيٍّْ
 مَا حَوَارٌ يَدُورُ - بِاللَّهِ - مَا بَيْنَ شِيَاهِ وَعَالَمِ ذَنْبِيٍّ
 فَاخْذِرِي يَا ابْنَتِي أَسَاتِذَةَ الذَّلَّةِ فِينَا، خَلَائِفَ ابْنِ أَبِي
 وَأَقْرَبِي يَا ابْنَتِي، لِتَحْتَنِي حَبْطَ الْحَيَارَى فِي الْعَيْهَبِ الْعَصْرِيِّ
 أَقْرَبِي يَا ابْنَتِي قِرَاءَةَ حَيٍّ يَتَحَرَّى الْمَعْنَاءَ، لَا غَيْرَ حَيٍّ
 لَكَ عَيْنٌ فَأَبْصِرِي، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ بَلَايَا تَنْوِيرِهِمْ بِحَفِيٍّ
 ثُمَّ شُقِّي إِلَى الْعَلَاءِ طَرِيقًا شُقٌّ مِنْ قَبْلُ، مُنْذُ عَهْدِ قَصِيٍّ
 سَارَ فِيهِ، كَمْ سَارَ فِيهِ عَلَى الْأَوَائِهِ، مِنْ كَمِيَّةٍ وَكَمِيٍّ
 فَاغْرِفِيهِ، لِتَعْرِفِي فَرْقَ مَا بَيْنَ ضِيَاءِ أَصْلٍ وَضَوْءِ دَعِيٍّ
 لَيْسَ هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي أَنْتِ فِيهِ غَيْرَ جُزْءٍ مِنْ غَابِرِ مَطْوِيٍّ
 لَكَ مَاضٍ عَزَّتْ بِهِ دَارٌ لَيْلَى، وَمَغَانِي لُبْنَى وَسُعْدَى وَمِيٍّ
 فَاغْرِفِيهِ، وَأَنْكِرِي أَنْ تَكُونِي وَطَرًا شَائِعًا لِأَهْلِ الْعَيِّْ
 وَعَزِيْزٌ عَلَيَّ دَمْعُكَ، فَاجْتَازِي الْأَسَى، وَاصْبِرِي عَلَى الْمُقْضِيِّ
 وَإِذَا مَا الزَّمَانُ أَعْرَضَ عَنَّا، فَاخْضُرِي مَنَظَرَ الْكُوسَى وَالْحُلِيِّ
 وَإِذَا مَا بَكَيْتِ فَابْكِي شَهِيدًا، لَا عَلَى حَظِّ وَالِدِ مَرْمِيٍّ

وَأَسِيرًا، وَرُبَّمَا غُلِبَ اللَّيْثُ عَلَى رَغْمِ بَأْسِهِ اللَّيْثِيِّ
وَأَجَلِّي دِكْرِي دِمَاءٍ أُرِيقَتْ لَتُنَجِّيكِ مِنْ أَدَى الْأَجْنِيِّ
يَا ابْنَتِي لَسْتَ بِابْنَتِي إِنْ تَحَيَّرْتَ لِإِلَهِ، أَوْ غَافِلٍ، أَوْ عَمِيٍّ
نُويْتِ نِيَّةً، وَهَذَا نَحْنُ صَرَعَى لِقَدِيمٍ مُسْتَحَدَثٍ دَمَوِيٍّ
فَارْفَعِي هَذِهِ الْكَمَائِمَ وَأَنْوِي، وَأَعْزِمِي عَزْمَةَ الْكَرِيمِ الْأَبِيِّ
إِنَّ دَاءَ خَلْفِ الضُّلُوعِ دَوِيًّا، لَا يُدَاوَى بِغَيْرِ دَاءٍ دَوِيٍّ



مُعَارِضَةٌ تَأَخَّرَتْ

أراد الله لي - جلت حكمته ودقته - أن أمتحن، وأن يطول زمان المحنة، فنسيني ناسٌ، وذكرني ناس، وكان من بين من ذكروني أخ كريم هو "عبد العليم عيسى". فاجأتني يومًا قصيدةً له منشورة في جريدة "الأخبار" من الكامل الأول على روى الدال المكسورة مهدأةً إلى، يُعزِّيني ويرجو لي الصمود. ونويتُ أن أعارضها، لكن ظلت العوائق تعاقني، فتأخر تحقيق النية حتى فوجئتُ يومًا بخبر وفاته فجاءتني هذه المرثية من البحر نفسه والقافية نفسها حاملة هذا العنوان الذي تطلب هذا البيان.

طَيْفٌ، كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ لَحْمٍ وَمِنْ عَظْمٍ، كَأَنَّكَ هَابِطٌ مِنْ فَرْقَدٍ
عُصْنٌ تَأْوُدُ أَحْضَرَ، لَكِنَّهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ لَيْسَ بِالْمَتَأْوُدِ
صُلْبٌ وَقَدْ غَدَتِ الصَّلَابَةُ سُبَّةً فِي رَأْيِ خَادِمِنَا وَرَأْيِ السَّيِّدِ
قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَزُورَكَ فِي عَدِي، لَوْ كَانَ فِي الْمُقْدُورِ أَنْ يَأْتِيَ عَدِي
لَأَقُولَ شُكْرًا أَنْ ذَكَرْتَ مُطَرِّحًا طَيِّ الحِجَارَةِ وَاسْتَتَرْتَ بَجَلْدِي
لَكِنْ عَجَلْتَ، أَتَاكَ آتٍ أَيُّدٌ، مَا اسْطَاعَ رَدَّ يَدَيْهِ أَقْوَى أَيِّدِ
مَا زَالَ فِي الإِمْكَانِ - مَنْ يَدْرِي؟ - إِذَا مَا حَلَّ يَوْمًا يَا صَدِيقِي مَوْعِدِي
أَنْ نَلْتَقِي، لَمْ لَا؟، وَتَشْهَدَ فِي أَحْيَاكَ - وَقَدْ أَرْيَحُ الوَقْرَ - مَا لَمْ تَشْهَدِ
وَتَرَى - إِذَا حَجَبْتَ نَسِيمَ مَوْدِدِي عَنْكَ الحَيَاةُ - مَوْدِدِي وَتَوَدُّدِي
لَمْ لَا؟ وَهَلْ سَوَى بَنَانِكَ صَانِعٌ عَبَثًا؟ وَقَالَ لِفِيكَ فَاهُ أَنْشِدِ
طُويَ الزَّمَانُ كَانَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ، وَاهَا، وَأَوْه، عَلَى السَّنَا المِتْبَدِّدِ
وَهَوْتُ لِيَالٍ، بَعْدَ شَكْوَى طُولِهَا، فِي الجُبِّ، وَانْحَسَرْتُ هُمُومُ المِجْهَدِ
مَا بَيْنَ مَوْتِنَا وَبَيْنَ المَوْلِدِ إِلَّا كَمِثْلِ اللَّمْحِ، أَوْ قَبْضِ اليَدِ
مَاذَا تَبَقَّى أَيُّهَا الكِرْوَانُ مِنْ جَمْرِ العَضَا، وَسُطُوعِهِ فِي المَوْقِدِ؟!
أَيُّكُونُ - كَلَّا، لَنْ يَكُونُ - مُعَرِّدٌ يَا أَيُّهَا الشَّادِي كَعَيْرٍ مُعَرِّدِ
قُمْ، وَاصْعَدْنِ، غُلِّلِ العَمَامِ دَعْتِكَ، فَاسْبِخْ فِي المِجِيطِ السَّرْمَدِ
فَارْقَتِ دُنْيَا لَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنْ أَحْبَبْتَهَا رَغَمَ القَدَى المِتْجَدِّدِ
أَلِفَ الهَوَاءِ بَهَا، وَلَكِنْ لَمْ يَعُدْ أَلِفُ الهَوَاءِ بِمُفْنِعٍ أَوْ مُسْعِدِ

وَرَحَلْتَ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ، لَا مَكَانَ هُنَا لَعَيْرِ بِلَادَةِ الْمُتَبَلِّدِ
وَرَطَانَةِ الْعُبْدَانِ لِلْعُبْدَانِ، بِعَسِ الْحَيْرِ، بِعَسِ الْعَيْشِ بَيْنَ الْأَعْبُدِ
أَعْمِضُهُمَا، إِنَّ التُّرَابَ أَبْرُ مِنْ فَلَكَ عَوٍ، مُتَمَاجِنٍ، مُتَهَوِّدِ
أَعْمِضُهُمَا، لَا خَيْرَ فِي مُتْسَاهِلٍ - شَهَدْتَ هَزَائِمُنَا - وَلَا مُتَشَدِّدِ



محمود محمد شاكر

لا تُسْمُوا ذَاكَ الْبِعَادَ جَفَاءً، رَبِّمَا كَانَ مَنْ تَبَاعَدَ أَدْنَى
عَلِمَ اللَّهُ أَنِّي كُنْتُ أَشْتَاقُ، وَلَكِنْ شَوْكٌ عَلَى الْبَابِ ضِنًّا
لا تُسْمُوا ذَاكَ الْبِعَادَ جَفَاءً، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ قَلْبِي أَنَا
وَتَمَاسَكْتُ، بِيَدِ أُنِي تَزْعَزَعْتُ بِرَغْمِي، طَيْرًا مَهِيضًا مُضْنَى
أَفَلَتَتْ أَسْطَرَّ الْجَرِيدَةَ عَيْنِي وَاسْتَهَلَّتْ، فَلَمْ أَكُفَّ الْعَيْنَا
قُلْتُ بِكِّي مَا شِئْتُ يَا عَيْنُ بِكِّي، وَأَفِيضِي الْمَكْتَمَ الْمَكْتَمًا

جَلَدِي لَا عَلَيْكَ، فَسَّخْ قَلِيلًا، جَلَدِي لَسْتُ بِالْمَحْمَدِ هُنَا
لَا تُسْمُوا ذَاكَ الْبِعَادَ جَفَاءً، إِنَّ فَصْلَ الْمُضَافِ لَا يَتَسَّى
إِنَّهُ كَانَ حَاضِرًا، أَمَرَ الْبَيْنُ وَ لَكِنْ عَصَيْتُ فِيهِ الْبَيْنَا
طَالَمَا جَسَمْتُ مُخَيَّلَتِي الْجِسْمَ فَلَيَّ لِمَا دَعَوْتُ وَحَنَّا
حَمَلْتَنِي عَلَى مُعَالَبَةِ الشُّوقِ طَوِيلًا نَفْسُ تَعَافُ الْمِينَا
لَيْسَ يُرْضِي الْكَرِيمَ أَنْ يُفْتَحَ الْبَيْتُ إِذَا عُدَّ صَاحِبًا بَيْنَ بَيْنَا
كَلَّفَ لَاحَ وَأَنْزَوَى، مَسَحَتْهُ رَاحَتَاهُ، فَلَمْ يَعُدَّ يُسْتَنْئَى
وَسَبَبْتِي سَنَاهُ- مَهْمَا يُصَوِّرُ وَاصِفُوهُ سَنَاهُ- عِنْدِي أَسَى
وَسَأَبَقَى- وَإِنْ أَسَاءَ الظَّنَّ- حَامِدًا، شَاكِرًا لَهُ، مُمْتَنًّا
غَبْتُ لَكَنْتِي عَلِمْتُ يَقِينًا أَنْ لِي فِي فَوَادِهِ الرَّحْبِ رُكْنًا
أَيْنَ مِنِّي عَهْدٌ قَضَيْنَاهُ كُنَّا نَتَمَلَّى، وَحِينَهُ نَتَعَنَّيْ
نَتَحَسَّى الرَّحِيقَ، أَيُّ مَتَاعِ ذَخَرْتُهُ الثُّرُونُ لِلشَّرْبِ دَنَا
كَمْ قَرَأْنَا مَعًا فَكَانَ إِمَامًا، أَيْنَ مِنِّي جَنِّي بِكَمِّي مُجَنِّي
وَوَقَعْنَا عَلَى نَمِيرٍ عَتِيقٍ، طَالَمَا طَابَ عَذْبُهُ لِكَلِينَا
وَعَنَانَا- وَالْعَصْرُ عَصْرُ السَّمَادِيرِ وَحَرْبِ الْمَعْنَاةِ- مَعْنَى الْمَعْنَى
وَدَفَعْنَا عَنِ الْجَرِيحِ الَّذِي أَتَّخَنَهُ الرَّمِي، وَاحْتَرَمْنَا الْوَزْنَ
وَلَقَدْ مَدَّ بَيْنَنَا الْوُدَّ أَنِّي أَتَمَنَّى بُلُوعَ مَا يَتَمَنَّى
نَفَثَ الْكَيْدُ سُمَّهُ فَتَصَدَّى، وَتَحَدَّى، وَكَانَ لِلْأُمَّةِ ابْنَا

ولقد كان- والمعاولُ تَهْوِي حَوْلَنَا، والحِصُونُ تَهْوِي- حِصْنَا
ولقد كان- والعزائمُ أعجازُ نخيلٍ- عزيمةٌ لا تُثْنَى
شَيِّعُوهُ، فإنما خَلِقَ العَظْمُ لِيَسْعَى بنا زماناً وَيَفْنَى
شَيِّعُوهُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تَغْرِبَ الشمسُ غروباً يُخْنِي على مَشْرِقَيْنَا
شَيِّعُوهُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَشْهَدَ الآمالُ تُطْوَى، ويشربَ الدَّمْعَ حُرْنَا
ويرى الدوحةَ العريقةَ تُهويها فؤوسُ العُدَاةِ عُصْنَا عُصْنَا
لَهْفَ نفسي عليه وَهِيَ طريحٌ تحت عينيه، وَهوَ بالكِ جُنَا
شَيِّعُوهُ، مضى الزمانُ الذي كان جمالُ الكلامِ فيه مَجْنَا
شَيِّعُوهُ، مضى الزمانُ الذي كان إباءُ الهوانِ فيه فَنَّا
شَيِّعُوهُ، مضى الزمانُ الذي كان إذا هُدَّ فيه شيءٌ يُبْنَى
والذي كان عندما يُحْسِنُ المِحْسِنُ يُجْزِي إِحْسَانَهُ والحُسْنَا
والذي كان إن أساء مُسيءٌ لَمْ يَهَبْهُ وَإِنْ يَكُنْ فِرْعَوْنَا
شَيِّعُوهُ غَضًّا تَصَلَّبَ حتى قلتُ هذي القنأةُ لا تتحى
وكأني نَأَيْتُ كَيْلَا أراهُ- بعد أن طالما اسْتَشَاطَ - أَسْنَا
شَيِّعُوهُ؛ وما الحياهُ إذا لم يَبْقَ منها إلا عليلٌ مُعَنَى
شَيِّعُوهُ، وَإِنْ ذَكَرْتُمْ غريباً فاذْكُرُوهُ يا صَحْبَهُ بالحُسْنَى
ليت شعري أَقِيلَ عَابَ أَخٍ يا صَحْبُ، أم قِيلَ يَسْتَحِقُّ السَّجْنَا
طُوِيَتْ صفحةً، وداعاً أبا فِهْرٍ، وداعاً، ودِدْتُ لو تتأنى

قِطْعَةٌ أَنْتَ مِنْ حَيَاتِي تَوَلَّتْ، كُنْتَ فِيهَا ظِلًّا ظَلِيلًا، وَلَحْنَا
شَيْعُوهُ رِيحًا رُحَاءً عَلَى الْخَلِّ، سَمُومًا إِذَا يُوَاجِهُهُ ضِعْنَا
وَسَلَامٌ عَلَيْهِ حَتَّى تَمُورَ الْأَرْضُ يَوْمًا، وَيُصْبِحَ الصَّخْرُ عَهْنَا
وَعَفَا اللَّهُ عَنْهُ؛ كَانَ يُصَلِّي، وَعَسَى أَنْ يُحِلَّهُ اللَّهُ عَدْنَا
إِنَّهُ- وَالَّذِي أَمَاتَ وَأَحْيَا- وَالَّذِي أَفْقَرَ الْعِبَادَ وَأَغْنَى-
لَجَدِيرٌ بَأَنْ يُلْقَى سُرُورًا، وَيُلَاقِي فِي فَيْئِهَا مُطْمَآنًا
وَسَقَى اللَّهُ دَارَهُ جَمَعْتَنَا، أَيَّنَ مِنِّي هَوَاؤُهَا، أَيَّنَ أَيْنَا



تَحَلِّدِي يَا لَوْلَاةُ

أَصَابَ رَمَيْتَهُ الصَّائِدُ، وَحَنَّتْ إِلَى خِلِّهَا نَاهِدُ
أَلَا أَبْلِغُ الْحَيَّ يَا دَمْعَهَا، بِأَنَّكَ فِي أَعْيُنِي جَامِدُ
نَفَاكَ أَسَى لَا يُطَاطِئُ يَوْمًا لَوَيْلٍ، نَفَاكَ لَطَى بَارِدُ
وَلُبُّ إِذَا فَجَأَتْهُ الْخُطُوبُ، فَإِنَّ سِوَاهُ هُوَ الشَّارِدُ
وَرُؤْيَا، فَقُلْ لِلْعِجَافِ سِيَأْتِي - وَإِنْ طَالَ لَيْلٌ عَلَيْنَا - غَدُ
لَقَدْ وَعَدْتَنِي عَزَائِمُ وَلَّتْ، وَخَلَّدَهَا أَدَبٌ خَالِدُ
لِيُوفِيَ قَلْبُ، وَيُوفِيَ لِسَانٌ، وَتُوفِي يَدٌ صَافِحَتَهَا يَدُ
أَلَا أَبْلِغُ الدَّارَ يَا دَمْعَهَا، بِأَنَّ مُعَيَّبَهَا عَائِدُ
تُصَاحِبُهُ نَجْمَاتُ الْغُرُوبِ، وَيُلْهِمُهُ مَشْرِقُ بَائِدُ
وَأَبْلِغُ عِيَالِي هِنَالِكَ أَنِّي لِعِزَّتِهِمْ - لَا لَهُمْ - وَالِدُ
وَأَنْتِي أَحْسَنُ، وَلَكِنِّي لِغَيْرِ الْهَوَى وَالنَّوَى سَاهِدُ



لَا سَلَامَ عَلَيْكَ

إِلَى بَيْلِ كَلْتُونَ

تَرْفِقَ دَمْعُكَ، يَا لَيْتَ شِعْرِي أَحَقُّ دُمُوعَكَ أَمْ مَسْرُحُ
أَتَبْكِي؟ أَشْكُ؛ إِذَنْ كَيْفَ هَانَ عَلَيْكَ دَمٌّ آمِنٌ يُسْفَحُ
إِذَا كُنْتَ تَبْكِي لِطِفْلِ تَيْتَمَ فَأَبِكِ عَلَى وَالِدٍ يُذْبَحُ
أَتَقْتُلُنَا كَيْ يَقُولَ فُضَائِكُ إِنَّكَ أَحْسَنْتَ، كَيْ يَصْفَحُوا
فَذَلِكَ أَعْجَبُ مِنْ كُلِّ أَعْجَبٍ، أَطْفَحُ مِنْ كُلِّ مَا يَطْفَحُ
أَتَيْتَ الْقَيْحَ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ مَا جِئْتَهُ أَقْبَحُ
وَحَيْثُكَ عَزَّهُ عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى رَفْعِ أَعْلَالِهَا يُفْتَحُ

وَهِيَ ذِي تَحْتِ نِيرٍ وَنَارٍ، وَبَعِي عَتَا، لَمْ تَزَلْ تَرْزَخُ
 لَعْنُ كَانَ ظَلْمُكُمْ فَادِحًا، لَتَرْحِينَا بِكُمْ أَفْدَحُ
 أَلَا خَابَ غِرٌّ، أَلَا خَابَ قَدَمٌ، يُصَدِّقُ أَنَّكُمْ الْأَصْلَحُ
 أَهْذِي حَضَارَتُكُمْ! يَا لَهَا! يَا لَقَشِّ بِأَجْوَابِكُمْ يَسْبَحُ
 وَأَيُّ نِظَامٍ، وَأَيُّ جَدِيدٍ، وَنَحْنُ بِفَوْضَاكُمْ نُلْفَحُ
 لَدَيْكُمْ قُرُونٌ، وَلَاكِ اعْلَمُوا بِأَنَّ الْحِجَارَةَ لَا تُنْطَعُ
 وَأَنَّ الطَّبِيعَةَ دَاتُ فُنُونٍ، وَأَنَّ التَّنَوُّعَ لَا يُكْبَحُ
 إِذَا كَانَ حَرْقُ الْبِلَادِ، وَخَنَقُ الْعِبَادِ نِظَامًا فَلَنْ تُفْلِحُوا
 وَلِلْمَلِكِ يَا مَلِكًا مَالِكٌ، إِذَا شَاءَ فَهَوَ لَنَا أَرْوَحُ
 أَقُولُ لَكُمْ: سَيَسُنُّ الْعِرَاقُ، وَلَكِنَّكُمْ بَعْدَ لَنْ تَنْجَحُوا
 سَتَبْقَى جِرَاحَاتُنَا يَا عَدُوَّ الْأَجِنَّةِ، يَا سُمَّهَا، تَنْضَحُ...
 عَدَاءً، وَلَكِنَّهُ - هَكَذَا عَلَّمَتْنَا الْمُرُوءَةُ - لَا يَجْمَعُ
 وَبُورِكَ قَوْمٌ أَهْيَلِ الْحِمَامِ عَلَيْهِمْ حَمِيمًا فَمَا زُخِرُوا
 وَإِنَّ الْعَذَابَ الَّذِي نَابَهُمْ لَمَّا فُضِحَتْ بِهِ أَفْضَحُ
 وَإِنَّ صَبَاحًا جَدِيدًا بِأَطْلَالِ بَعْدَادَ يَا فَأَسَهَا يُلْمَحُ...
 بَعِيدًا، بَعِيدًا، وَلَكِنَّهُ لَا مَحَالَةَ يَا لَيْلَهَا مُصْبِحُ
 شَكَّكَتْ، وَلَكِنَّنِي الْآنَ رَعَمَ الضَّبَابِ أَرَى، رُؤْيِي أَوْضَحُ
 أَلَا، كُلُّ مَا حَوْلَنَا مَذْبَحٌ، أَلَا، كُلُّ مَا حَوْلَنَا مَسْرَحُ



أَسْلِمَ

إلى رُوحِ مَرَوَةِ الشَّرْبِينِي فِي عِلِّيِّينَ

هَذِي الْمَوْسِيقَا تُزَعِّجُنِي، جَنَّبَيْهَا، لَا تُسْمِعِنِي
أَعْنِي، وَوُجُودُكَ، كُلُّ وُجُودِكَ، كُلُّ وُجُودِكَ لَا يَعْني
وَمَتَاعُكَ لَيْسَ مَتَاعِي، قَلْتُ لَصَوْتِ آخَرَ أَمْتَعِنِي
وَلَقَدْ أَرْضَاكَ نَبِيذُ الْكَرَمِ، وَمَرْضَاتِي لَبْنُ السَّعْنِ
وَعَرَفْتُ طَعَامَكَ، لَا يُعْنِي، فَاَمْنَعِنِي مِنْهُ وَجَوْعِنِي
لَأَرْدُتُكَ أَنْ تَحْيَا حُرًّا، فَاخْطِمْ أَقْيَادَكَ وَاتَّبِعِنِي
شَمْرًا، هَذَا أَجْدَى، مَاذَا بَجْنِي مِنْ لَعْنِكَ أَوْ لَعْنِي
وَالْقَوْمُ أَجَادُوا الطَّعْنَ، فَمَا لَكَ تَنْفِرُ مِنْ عِلْمِ الطَّعْنِ
تَبًّا لِسَلَامِكَ يَا هَذَا، إِنْ لَمْ يَرْفَعَكَ وَيَرْفَعِنِي
مَا زَالَ رَجَائِي فِيكَ - عَلَيَّ مَا فِيكَ - فَأَسْلِمَ أَوْ دَعْنِي



قَسَمَ لِلْقُدْسِ مِنْ جِيلٍ قَادِمٍ

قِيلَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ مِنْذُ حَوَالِي خَمْسَةِ وَثَلَاثِينَ عَامًا، تَأَثُّرًا بِكَلِمَةٍ قَرَأْتُهَا فِي جَرِيدَةِ "الْأَهْرَامِ" لِمَنَاخِمِ بِيحَن، رَئِيسِ الْوُزَرَاءِ الْإِسْرَائِيلِيِّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. قَالَ: "سَتَبْقَى الْقُدْسُ عَاصِمَةً لِإِسْرَائِيلَ إِلَى الْأَبَدِ". وَظَلَّ الْمَعْنَى يَتَرَدَّدُ طَوَالَ هَذِهِ الْحَقْبَةِ عَلَى أَلْسِنَةِ خُلَفَائِهِ، دُونَ أَدْنَى مِبَالَاةٍ بِالْمُفَاوِضَاتِ الدَّائِرَةِ حَوْلَ السَّلَامِ. قَصِيدَةٌ قَدِيمَةٌ. لَكِنْ جَدَّدْتُهَا الْمُنَاسِبَةَ. جَدَّدْتُهَا اسْتِمْرَارُ الْبَغْيِ وَالصَّلَافِ وَالْعُدْوَانِ، وَعَدَمُ احْتِرَامِ الْمَوَاطِيقِ. جَدَّدْتُهَا أَنَا - فِيمَا يَبْدُو - لَا تُخِيفُ. وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ.

يُلُوخُ، هَاهُو ذَا غَيْرَهُ الْهَهُمُ
يَلُوخُ، فَلْتَنْحَسِرْ يَايُهَا الْغِيَمُ

* * *

هَاهُو ذَا وَجْهَهَا فَوْقَ مُصَلَّى عَمَرَ
كَالنَّجْمِ ، لَكِنَّمَا أَوْهِيَ سِنَاهُ الْقَدَرُ

* * *

عَيْنَانِ أَوْمَضَتَا فَاَنْطَبَقَ الْجَفَنَانُ
كَيْلَا يَسِيلَ الْأَسَى مِنْ وَطْأَةِ الْإِذْعَانِ

* * *

مَا هَذِهِ النُّظْرَةُ كَأَنَّهَا جَمْرَةٌ
ذَا كِبَرُهَا طَاوِيًّا عَنِ الْوَرَى سِرَّةً

* * *

يَا دَمْعَهَا اِرْقُضْ لَا يَذْهَبُ بِهَا الْكَمَدُ
دَعِيهِ يَا أَخْتُ، مَا خَالٍ كَمَنْ يَجِدُ

* * *

دَعِيَ الْجَوَى يَنْهَلُ، فَرَمَّا يَنْسَلُ
أَدْنِكَ مَسْأَلَةٌ، وَفِي يَدَيْنَا الْحَلُّ

هَاهُوَ ذَا صَوْتِهَا أَدْنًا لِلْفَجْرِ
اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ طَاغٍ وَ مُعْتَرٍّ

* * *

فَلَمْ يُجِبْ مِحْرَابُ رَجَعَ الصَّدَى الْمَنَسَابُ
وَأَندَاحٌ مُخْتَنِقًا، فَالْجَنَدُ بِالْأَبْوَابِ

* * *

أَقَامَهُمْ أَنَّنَا ظِلُّ لَشَيْءٍ غَابُ
أَقَامَهُمْ عَرَبُ أَعْيَاهُمْ الْإِعْرَابُ

* * *

وَأَنَّ تُوَارَيْنَا مُحْتَرِفُو ثَوْرَةَ
وَأَنَّا - كَلَّنَا - مُصَفَّقُ مُكْرَةَ

* * *

كانت مناظرنا، فأصبحث حُلماً
يا غيبُ نبيِّء، تُرى أنلتقي يوماً

* * *

القدسُ "كانت" لنا، أسرفتِ يا أيام
فهلُ بها ما بنا، أم سكنَ التَّهيام

بَعَى الذين بَعَوْا قبلُ على موسى
وظَلَّ يشتمُّهم - حتى قضَى - عيسى

* * *

لسنا الذين رَمَوْا بهم إلى المنفى
هذي مدينتنا أَلْفَا تَلَّتْ أَلْفَا

* * *

لَمَّا قَصَدْنَاهَا مِفْتَاحُهَا لَبِّي
فَمَا أَرَدْنَاهَا مُسْلِمَةً عَصَبَا

* * *

صُلْبَانُهَا خَرَجَتْ تَسْتَقْبِلُ الْأَهْلَا
مِنْ بَعْدِ مَا عَرَفَتْ أَنَا بِهَا أَوْلَى

* * *

عَلَى مَدَاخِلِهَا سِيوْفُنَا خَشَعَتْ
وَعَاهِدَتْنَا، فَمَا خُنَّا، وَلَا خَدَعَتْ

* * *

وَصَاحِبَتْنَا فَمَا كُنَّا سِوَى الْأَبْرَارِ
هَلْ أَنْكَرَتْ وَدَّنا نَحْنُ - حُمَاةَ الْجَارِ

هَلْ أَضْمَرْتُ نَأْيَهَا كَلَّا ، عَدَاها العَارِ
مَا كَانَ ذَا رَأْيِهَا ، ذَلِكَ رَأَى النَّارِ

* * *

رَاحَتْ لَهُمْ يَدُنَا تَسَعَى فَرْدُوهَا
قُلْنَا : سَلَامٌ ، وَمَا قَلْنَا اسْتَبِيحُوهَا

* * *

لَجَّ الْغُرُورُ بِهِمْ لِأَنَّهُمْ قَدَرُوا
لِأَنَّهُمْ أَمَرُوا وَنَحْنُ نَأْتِمُرُ

* * *

بُوحِي لَنَا بُوحِي يَا قُبَّةَ الصَّخْرَةِ
أَفْضِي إِلَى الرِّيحِ ، وَلَوْ بِمَا نَكَرَهُ

* * *

"مَنْ أَنْتُمْ ، وَيُحْكَمْ ، مَا هَذِهِ السَّكْرَةُ
كَأَمَّا ضُرِبَتْ عَلَيْكُمُ الْحَيْرَةُ

* * *

رَأَيْتُكُمْ كَثْرَةً لَكِنْ بَلَا قُدْرَةَ
رَأَيْتُكُمْ عَرَبًا فَاتَتْهُمْ الْغَيْرَةُ

جَهَلْتُمْ الْإِمْرَةَ يَا عَاشِقِي الْإِمْرَةَ
وَأَنْتُمْ أَعْبُدُّ لَا أَنْفُسَ حُرَّةَ

* * *

تَرَكْتُمُونِي هُنَا أَمْشِي عَلَى الشَّوْكِ
تَارِيحُكُمْ وَأَنَا فِي قَبْضَةِ الشَّرِّكَ

* * *

أَمْسَلْمُونَ، إِذَنْ جَهَلْتُمْ التُّسْكَا
مَنْ ضَنَّ بِالنَّفْسِ مَا صَلَّى وَلَا زَكَّى

* * *

أَمْسَلْمُونَ ، أَجَلْ ، لَكِنْ بِلَا دِينِ
حَتَّى يُجَمِّعَكُمْ جُرْحُ الْمَلَائِكِينَ

* * *

ضَاعَ دَمٌ سَالَ مِنْ أَفْئِدَةٍ شَتَّى
أَلَمْ يَبْنِ لَكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا الْمَوْتَأَ

* * *

قُلْنَا: حَنَائِيكَ يَا قَدْسُ ، يَا قُدْسَنَا ،
رُفَّقَا بَعَيْنَيْكَ لَبِيِّكَ لِيَبْكَ

سَنَلْتَقِي فِي غَدٍ ، بِرَغْمِ مَا تَشْكِينُ
مَا دَامَ فِي رُوحِنَا يَسْرِي صِلَاحُ الدِّينِ

* * *

إِنَّ الْأَلَى صَنَعُوا لِحَارِقُ دَمُهُمْ
بِبَاسِهِمْ حِطَّيْنِ أَفَاعِي التَّوْهِينِ

* * *

ذَلَّ تَرَابٌ لَهُمْ ، وَأَذَعَنْتِ سِكَكُ
أَمَّا عَزَائِمُنَا فَلَيْسَ تُنْتَهَكَ

* * *

ما زال في الإمكان يا شامُ يا لبنان
يا مصرُ يا سودانُ أبدعُ مما كانُ

* * *

وإن كُبا يؤمنا فما كُبا الأمسُ
لطالما غربتُ وأشرفتُ شمسُ

* * *

لن نستكينَ ولو تهوّدَ القللكُ
كلا ، ولو ملكوا أضعافَ ما ملكوا

"للسلم قد جنحوا" قلنا: "كفى زورا"
لطالما ذبحوا، وهدموا الدورا

* * *

لو أشفقوا أشفقوا على صبا يوسف
ومن أئمننا إذا قلتُ لديه : أفُ

* * *

يا آل يعقوب كم في جوفكم من حُبِّ
يا وري أكبادهم من أين يأتي الحُبُّ

* * *

والليل إذ أذبر، والصبح إذ أسفر
ليطلبن غداً أن يدخلوا خيبر

* * *

ستطمع السكين إذا جرت في لين
ولم تُثر غضباً جناية الجانين

* * *

وليس فيما كان ما كان في الحُساب
ننسى ، وها هي ذي عقوبة النسيان

كانت لنا يافا كانت لنا عكا
والآن ماذا هما حكاية تُحكي

* * *

ناحت أغابنا تقول وأسفا
تبكي وتبكي على الذي سلفا

* * *

"كانت لنا أوطان - وتدمع العينان -
يا عدل أين الآن، أين الذي قد كان!

* * *

لغيرنا الغيطان، وزهرها الریان
لغيرنا عبت نسائم الریحان

* * *

نشاق يا ظل، نشاق يافل
نشاق يا وطنًا ينحل ينحل

* * *

قُلْنَا: دَعُوا الْأَحْزَانَ لِحَائِطِ الْمَبْكِيِّ
نَحْشَى يَجِيئُ زَمَانٌ يَدْكُنَّا دَكًّا

الْقُلُّ لَا يُؤْسَى عَلَيْهِ وَالنَّسْرِينِ
مَصَابِنَا أَقْسَى مِنْ أَرْجِ مَسْجُونِ

* * *

مَصَابِنَا الْأَلْحَانَ، وَتَافِيَهُ فَنَانَ
غَيْئِي، وَغَادَرْنَا كَالدُّودِ وَالْجُرْذَانَ

* * *

مَصَابِنَا أَنَا هُنَّا، وَلَكِنَّا
كَأَنَّا - مِنْ رِضَى بِالذَّلِّ - مَا هُنَّا

* * *

قُلْنَا: دَعُوا الشُّكُورَى، الْعَدْلُ أَنْ نَقْوَى
وَابْكُوا الْكِرَامَةَ إِنَّ تَبْكُوا عَلَى الْمَأْوَى

* * *

كانت لنا يافا كانت لنا عكا
قلنا: قضاء جري، لكن كفى تركا

* * *

أما السلام فذا لفظ بلا معنى
إذ إن كُلا على ليلاه قد عني

قلنا: ومن لم يذ عن حوضه يهدم
والظلم طبع، فمن لم يدرع يظلم

* * *

أما السلام الذي لم يحمه سيف
فهو السحاب الذي بدده سيف

* * *

إِنَّا سَوَاءٌ إِذَا مَا سَنَحَ الْقَطْفُ
فَمَا عَقَفْنَا مُرِيدِينَ، وَلَا عَقْفُوا

* * *

حَمَائِمُ الْأَيْكَ لَمْ تَسْتَحْرِمَ الْفَتْكَ
لَوْ اسْتَطَاعَتْ رَمَتْ لَتَمْنَعَ الْأَيْكَ

* * *

يَا قَدْسُ لَنْ نَبْكِي، يَا قَدْسُ لَنْ نَبْكِي
إِنْ لَمْ يَجِيءْ حَقُّنَا طَوْعًا، فَبِالسَّفْكَ

* * *

وَالنَّحْمُ إِذْ يَنْحَلُّ مُحَمَّدٌ مَا ضَلَّ
هُمُ الْعَدُوُّ، غَلَا عَدَاؤُهُمْ أَوْ قَلَّ

وَالَّذِي أَسْرَى بَعْبِدِهِ فِي اللَّيْلِ
لَنْرَجِعَنَّ قَسْرًا، بِرَعْمِ أَنْفِ الْوَيْلِ

* * *

والتين والزيتون، وطور سينين
والبلد المأمون، إننا لمؤفوننا

* * *

إِنَّ لَدِينَا عَمَلًا

عَضَّ زَمَانٌ، وَوَهَتْ أَعْظُمٌ، وَأَدَّ زَنْدَيَّ الَّذِي لَا يَأْتِي
صَارَ صَبِيُّ الْمَهْدِ شَيْخًا، كَمَا صَارَ هَشِيمًا بَعْدَ مَا اخْضَرَ عُودٌ
وَقَالَ شَعْرُ شَابٍ إِنَّ الْمَدَى ضَاقَ، وَإِنِّي لَأَحِقُّ بِالْجُدُودِ
أَنَا هُنَا الْآنَ، وَلَكِنْ غَدًا أُمْسَى طَعَامًا دُونَ شَكِّ لِدُودِ
فَلْيَخْسَأِ الْقَيْدُ عَلَيَّ مِعْصَمِي؛ زَائِلَةٌ يَوْمًا جَمِيعُ الْقَيْودِ
عَضَّ زَمَانٌ، وَدَنَا مَغْرِبٌ، وَوَلَّحَ لِي مَاءٌ، وَعَزَّ الْوَرُودُ
تُرَى إِلَى أَيْنَ؟! بَرِيدِي مَضَى، فَهَلْ تُرَى أُمَّهَلُ حَتَّى يَعُودُ
أَحَاطَ بِي سَوْرٌ، فَلَمْ تَمْتَثِلْ لِحُكْمِهِ وَرَفَاءِ تَهْوَى الصَّعُودِ

رَقَّتْ، فَلَمْ يَشْعُرْ بِتَحْلِيْقِهَا - لَمَّا تَخَطَّتْهُ - رِصَاصُ الْجَنُودِ
عَاجَتْ عَلَى بَيْتِي، وَأَلْقَتْ عَلَى سُكَّانِهِ نَظْرَةً حَانٍ وَدُودٍ
وَحِينَمَا هَاجَ الْجَوَى دَمَعَهَا أَمَرْتُ فَوْرًا عَيْنَهَا بِالْجَمُودِ
إِنَّ لَدِينَا عَمَلًا، وَالْأَسَى - تَبًّا لِكُتَّابِ الْأَغَانِي - فُعودُ
تَخَلَّصِي، وَارْتَفَعِي، غَلْغَلِي طَيِّ الْكثَافَاتِ، وَشُقِّي السُّدُودِ
نَادَى مُنَادٍ خَلْفَ تِلْكَ الرَّبِّي، فَاسْتَقْبَلِي مَا عِنْدَهُ مِنْ وُعودُ
وَجَدْدِي الْبَيْعَةَ؛ جَفَّ الثَّرَى، وَكَفَّ حِينَ الْبَاسِ وَرَى الزُّنُودِ
وَاسْتَرُوحِي، إِنَّ خَضَارًا بَدَا، وَرَبَّمَا لَبَّتْ هَوَاكِ النُّجُودِ
لَكِنْ إِذَا فَاحَ شَذَى فَاحْذَرِي أَنْ تَقْعِي أُسِيرَةً لِلْوُورُودِ
إِنَّ لَدِينَا عَمَلًا، وَالذُّرَى لَمْ تُرَقْ إِلَّا بِتَوَالِي الْجَهْودِ
تَذَكَّرِي الْعُشَّ وَأَفْرَاحَهُ، وَالْوَبَاءَ الْآتِي، وَقَوْمِي الرُّقُودِ
مَا أَبْشَعَ الْمَنْظَرُ! لَوْ أَنَّهُمْ تَصَوَّرُوهُ لَافْشَعَرَتْ جُلُودِ
ذَاتِ الْجَنَاحَيْنِ اسْبَحِي وَاسْبَحِي، عَفْتُ الْهَوَاءَ الْمَيْتَ عَفْتُ الرُّكُودِ
لَكِنْ إِذَا أَغْرَاكَ جَوْ خَلَا، فَلَا تُطِيلِي فِي الْخَلَاءِ الْهُجُودِ
وَلَا تُحْيِزِي لِمَقَامِ عَلا - مَهْمَا عَلا شَأْنُكَ - تَرَكَ السُّجُودِ



ابن الملوّح يبرأ

الخطابُ لصاحبِ أصابهُ غرامٌ . وبعَدَ مجاهدةٍ برئٍ منه، أو هكذا ظنَّ، فقال راضيًا عن بُرئه ((أضاءتْ، واحتَرَقَتْ)) .

أَرِقَّتْ يَا صَاحِبِي وَمَا أَرِقَّتْ، فَلْتَحْمَدِ اللَّهَ أَتَّهَا احْتَرَقَتْ
لَمَحَتْ طَيِّ الدُّجَى سَنَا لَهَبٍ، فَقَلَّتْ لَيْلَى بَمَوْهِنٍ شَرَقَتْ⁽¹⁾
وَمَا أَضَاءَتْ، أَضَاءَ خُلْبُهَا، وَإِنَّمَا نَارُكَ الَّتِي بَرَقَتْ⁽²⁾
لَمَّا كَبَتْ بِالذَّلِيلِ حَيْرْتُهُ، وَمَلَّ حَادٍ حُدَاءَهُ، وَرَقَتْ⁽³⁾
رُقَاتُنَا مُدْمِنِي الْهَوَانِ سُدَى، سَلَوْتُ لَمَّا بَمَوْهِنٍ طَرَقَتْ
فَتَحَتْ بَابًا لِأَسْهَمٍ كَمَنْتَ، لَوْ لَمْ تُفْسَخْ لَهَا لَمَّا مَرَقَتْ⁽⁴⁾
أَعِيدُهَا مِنْكَ نَظْرَةً صَدَقْتَ، أَنْ تَكْسُوَ اللَّحْمَ أَعْظَمًا عُرِقَتْ⁽⁵⁾
وَأَنْ تُسَمِّيَ أَدَى هَوَى، وَكَفَى سَرَّاقَةَ الْمَكْرُمَاتِ مَا سَرَقَتْ
أَحْشَى رَمَادًا، تُحِيلُهُ طَلَلًا .. سُبُلٌ بِكُلِّ الْأَحْبَةِ افْتَرَقَتْ
فَإِنْ يُعَاوِذُكَ هَاجِسٌ، فَلَقَدْ أَرِقَّتْ يَا صَاحِبِي وَمَا أَرِقَّتْ
أَوْ صَوَّحَتْ - لَا عَلَيْكَ - نَابِتَةٌ، فَلَمْ تَزَلْ تَمَّ نَبْتَةٌ وَرَقَتْ⁽⁶⁾
أَوْ لَمْ تَشَمَّ الْعَرَارَ إِذْ عَرَضَتْ نَجْدٌ، فَبُؤْسَاكَ عَادَةٌ خُرَقَتْ⁽⁷⁾
ضَيَّقَتْ رَحْبَ الْمَدَى إِذَا مَلَأَتْ رَحَابَهُ ذَاتُ مُسَدَلٍ فَرَقَتْ⁽⁸⁾
قَدْ جَمَعْتَنَا غَرَائِرُ حَكَمْتِ، أَجَلٌ، وَلَكِنْ هَمُّنَا فَرَقَتْ⁽⁹⁾

-
- (1) المَوْهِنُ كَالْمَوْهِنِ نَحْوَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، أَوْ بَعْدَ سَاعَةٍ مِنْهُ. وَشَرِقَتْ كَأَشْرَقَتْ.
(2) يُقَالُ بَرَقَ خُلْبٌ وَهُوَ مَا يَكُونُ فِي سَحَابِ خُلْبٍ، أَيْ لَا مَطَرٍ فِيهِ، فَكَأَنَّهُ يَخْدَعُ.
(3) رَقَى اسْتَعْمَلَ الرُّقِيَّةَ فِي النِّفْعِ أَوْ الضَّرْرِ، وَهِيَ عَمَلٌ يُسْتَعَانُ بِهِ لِلْحَصُولِ عَلَى شَيْءٍ بِقُوَى غَرِيبَةٍ. وَالرُّقَاةُ جَمْعُ الرَّاقِي.
(4) مَرَقَتْ: نَقَدَتْ.
(5) عُرِقَ الْعِظْمُ: أُكِلَ مَا عَلَيْهِ مِنَ اللَّحْمِ.
(6) صَوَّحَتْ يَبْسُتُ. وَوَرَقَ الشَّجَرُ ظَهَرَ وَرْقُهُ.
(7) الْعَرَارُ نَبَاتٌ طَيِّبٌ الرَّائِحَةِ.
(8) فَرَقَ الشَّعْرَ سَرَّحَهُ.
(9) فَرَقَتْ: فَصَلَتْ.

وَتَمَّ شَيْءٌ يَظَلُّ بَعْدُ إِذَا هَرَقْتَ مَاءَ الْحَيَاةِ، أَوْ هَرَقْتَ
 هَذَا، وَإِلَّا فَحُنُّ سَائِمَةٌ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَرَضْتَ الْمِعَى ذَرَقْتُ (1)
 حِيَالِكَ الْأَفْقُ كِي تَرَاهِ، فَمَا جَافَتَهُ إِلَّا نَوَاطِرٌ بَرَقَتْ (2)
 وَغَارَ نَجْمٌ لُتْسْتَفَزَّ نُهْيً، وَذَرَّ صَبْحٌ لِحِبْهَةٍ عَرَقَتْ (3)
 وَانظُرْ إِلَى الْبَحْرِ، ذِي سَفَائِنُنَا كَأَنَّهَا دُونَ عِلَّةٍ خُرِقَتْ
 وَلْتَسْأَلِ الْأَرْضَ مَا أَلَمَّ بِهَا، وَكَيْفَ مِنْ بَعْدِ سَمَحِهَا شَرِقَتْ (4)
 فَلَمْ يَعُدَّ يُنْبِتُ الْكِرَامَ ثَرَى، آبَاءُ آبَائِنَا بِهِ اعْتَرَقَتْ (5)
 وَكَيْفَ هُنَّا لِأَنَّ أَعْيُنَنَا سُودٌ، وَأَعْيَانُ غَيْرِنَا زَرَقَتْ
 تَقَسَّمْتُنَا خِرَائِطٌ لَعَنَتْ رَسَامَهَا، أَيْمَنْتُ أَوْ اعْتَرَقْتُ (6)
 خَاضَتْ بِأَسْلَاحِهَا مُخَيَّلْتِي، وَقَاتَلَ اللَّهُ أَنْفَسًا فَرِقَتْ
 فَاسْتَهَجَنَنْ أَدْمَعًا شَرِقَتْ بِهَا، كَأَنَّهَا بِالْمُرْبِقِهَا شَرِقَتْ
 شَكَّكَتَ لَمَّا رَأَيْتَهَا بَرَقَتْ، فَقَالَ جَمْرُ الْعَضَا لِمَنْ بَرَقَتْ؟ (7)
 فَهَآكَ بَعْضَ الْيَقِينِ، هَا هِيَ ذِي حِصُونِنَا كُلُّهَا قَدْ اخْتَرَقَتْ
 سَيَّانٍ فِينَا جَمَاعَةٌ قَصَّرَتْ جَلْبَابَهَا، أَوْ جَمَاعَةٌ مَرَقَتْ (8)
 وَأَصْبَحَ الشَّاعِرُونَ تَفْضُلُهُمْ عِنْدِي - وَعَفْوًا - دَجَاجَةٌ قَرَقَتْ

(1) المِعَى مُفْرَدٌ أَمْعَاءُ، وَذَرَقٌ تَغَوَّطَ.

(2) لَمْ تَقْدِرْ عَلَى النَّظَرِ.

(3) ذَرَّ طَلَعَ.

(4) شَرِقَتْ: امْتَنَعَتْ أَنْ يَجْرِيَ الْمَاءُ فِيهَا.

(5) اعْتَرَقَ الشَّجَرُ: امْتَدَّتْ عُرُوقُهُ فِي الْأَرْضِ.

(6) أَيْمَنْتُ دَلَّتْ عَلَى بِلَادِ الْيَمَنِ، وَاعْتَرَقَتْ دَلَّتْ عَلَى الْعِرَاقِ.

(7) بَرَقَتْ: تَزَيَّنَتْ.

(8) مَرَقَتْ: ضَلَّتْ.

صاروا سواءً، بُكَاءَ غَادِرَةٍ، أو أمةٍ في ضلالِها عَرِقَتْ
لا كان فَنُّ الرثاءِ إن سَكَنتَ رِيحٌ، بغيرِ المنادِ انْخَرَقَتْ⁽¹⁾
ويَشْتُمُ السَّاحِطُونَ أَنْفُسَهُمْ، لِيُخْطِئَ الشُّتْمُ أَرْوَسًا خَرِقَتْ
لا كان فَنُّ الهجاءِ إن خَفِيتْ جلودُ قومٍ به وقد يُرِقَتْ⁽²⁾
أَطْرَقَ، ولكنْ لِحيلةٍ، فَلَقَدْ ضِعْنَا، وَحَسْبُ الْخَطُوبِ ما عَرَقَتْ⁽³⁾



(1) انْخَرَقَتْ: اشتد هبؤها. والمنادِبُ جَمْعُ المنادِ وهو نَذْبُ الميت.

(2) يُرِقَتْ: أصابها اليرقان وهو مرضٌ جِلْدِي.

(3) يُقال عَرَقَتْهُ الخطوبُ أي أخذت منه.

ناران

"لَكَ عَيْنٌ يَكَادُ يَطْفُرُ مِنْهَا... - قُلْتُ: تَخْنَأُهَا؟ - فَقَالَتْ: أَجَلٌ،
غَيْرَ أَنَّ الْحَنِينَ يُضْمِرُ أَمْرًا"، قُلْتُ: خَيْرًا؟ فَرَدَّ عَنْهَا الْحَجَلُ
قَدِّكَ لَيْلَى، فَلَيْسَ هَذَا بِهَذَا، لَيْسَ جَلُّ الْجِنَانِ فِي السُّنَنِ جَلٌّ⁽¹⁾
بَيْنَ نَارِيَّ فَرْقٌ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ، فَإِيَّاكَ، لَا يَضْرِكُ الْعَجَلُ
خَرَقَتْ لَحْمَكَ الْبُضِيضَ لِحَاظِي لِتَقْرَى مِنْ بَعْدُ شَيْئًا أَجَلٌ
كُلَّمَا شَمْتُهُ اسْتَطَارَ فُؤَادِي لِسَنَاهُ سَنَا ذَوَاتِ الْحَجَلِ

(1) قَدِّكَ: اسم فعل بمعنى كفى أو يكفي، والكاف مفعول به لقد، والجَلُّ الأولى: الورد، والأخرى الشُّراع.

وَكَاثِي حَمَامَةٌ زَجَلَتْهَا - بُعِيَةَ الْفَوْزِ - أَمْنِيَاتٌ زُجَلٌ (1)
 خِيفَ يَا حُلُوهُ الطَّرِيقُ إِلَيْهِ، فَتَحَامَاهُ شِعْرُنَا وَالرَّجُلَ
 وَزَوَاهُ - جَهْلًا وَعِلْمًا - نِسَاءً هَمُّهَا، كُلُّ هَمُّهَا، فِي التَّجَلِّ (2)
 وَرِجَالٌ دِيسَتْ لِتَأْبَى فَلَمْ تَأْبَ، رِجَالٌ يُشَايَهُونَ الرَّجُلَ (3)
 أَنْتِ مَدْعُوَّةٌ لِأَنَّ تَعْرِيفَهُ، وَلَيْلًا يُوهِي قُؤَاكِ الْوَجَلِ
 وَلِأَنَّ تَحْبَلِي بِمَاشٍ عَلَى الشُّوكِ، وَإِلَّا فَفِيمَ كَانَ النَّجَلُ؟ (4)
 أَبْلَغِي لِحَمَكِ الْبَضِيزِ اشْتِيَاقِي، وَاشْتِيَاقِي أَيْضًا لِحَرْبِ الدَّجَلِ
 يَتَمَشَّى مَا بَيْنَنَا ثَابِتَ الْخُطْوَةِ، أَمَا رَشَادُنَا فَحَجَلٌ (5)
 لِلشَّيَاطِينِ حَيْثُ كُنْتِ عَزِيفٌ، أَزْهَفِي السَّمْعَ نَسْتَيْبِي الرَّجُلَ (6)
 وَهُوَ أَصْلٌ، وَلَيْسَ فِي يَدِ أَيْدٍ أَنْ يَقِينَا - وَقَدْ عَثَرْنَا - الرَّجُلَ (7)
 أَرَأَيْتِ الْأَفْعَى تَكَيْسُ لِتَنْقُضَ، فَمَنْ عَلَّمَ الْأَفَاعِي الرَّجُلَ (8)
 كَذَبَ الْفَيْلَسُوفُ، إِنَّ الَّذِي حُدِّثَهُ الْعَارُ لَيْسَ بِالْمُرْتَجَلِ

-
- (1) رَجَلُ الْحَمَامَةِ: أَرْسَلَهَا إِلَى بَعِيدٍ فَهِيَ زَاجِلٌ، وَرُجَلٌ: جَمْعُ رُجْلَةٍ، الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ، وَاسْتُعْبِرَ
 لِلْوَصْفِ وَمَطْلُقِ الْاجْتِمَاعِ.
 (2) زَوَى: نَحَّى، وَالتَّجَلُّ: التَّجَلَّى.
 (3) الرَّجُلُ جَمْعُ الرَّجْلَةِ، وَهِيَ بَقْلَةٌ تَنْبَتُ عَلَى طَرَقِ النَّاسِ فُتْدَاسٌ، وَهَذَا وَصِفَتْ بِالْحَمَقِ.
 (4) النَّجَلُ: الْوَلَادَةُ.
 (5) حَجَلٌ: مَشَى وَثَبًا عَلَى رِجْلٍ وَاحِدَةٍ.
 (6) عَزِيفُ الْجُرْنِ: أَصْوَاتُهَا، وَالرَّجَلُ هُنَا بِمَعْنَاهَا.
 (7) الْأَيْدُ: الْقُوَّةُ، وَالرَّجَلُ: إِصَابَةُ الرَّجْلِ.
 (8) تَكَيْسُ الْحَيَّةُ: تَنْحَوِي، أَيِ تَسْتَدِيرُ فِي مَكَاسِهَا. وَالرَّجَلُ بِتَسْكِينِ الْجِيمِ: الظُّلْمُ، وَحُرْكَ اللَّقَافِيَةِ.

جَهَلَ الْمَهْرُ، وَهُوَ أَجْهَلُ مِنْهُ، فِيمَ فِي أَيَطْلِيهِ كَانَ حَجَلًا (1)
 فَاسْتَرَيْبِي إِذَا التَّقْدُمُ نَادَى، قَدْ يَكُونُ الْبَلَاءُ فِي مُهْتَجَلًا (2)
 عَمَزَتْ مُومِسٌ بَعَيْنٍ، فَلَا يَفْتِنُكَ فِي أَعْيُنِ الْمَهْجُولِ الْمَهْجَلًا (3)
 أَوْ عَوَانٍ حَسَدَنَهَا لِمَدِيحٍ، عِجْلَةٌ غُوَزَلَتْ فَعَارَتْ عِجَلًا
 وَإِذَا مَا رَأَيْتَ قَهَقَهَةَ الْغَرِّ فَمُؤَلِي: رَأَيْتُ عَيْرًا رَجَلًا (4)
 وَإِذَا مَا زُهِيتِ فَازْهِي بِجُهْدٍ، وَجَهَادٍ، لَا بِاللَّمَى وَالنَّجَلِ (5)
 بَزَّ كُلَّ الْوُجُوهِ عِنْدَ اكْتِنَاهِ الْحُسْنِ وَجَهَةٌ إِذَا انْتَصَرْنَا بِجَلِ (6)
 زَوَّدِينَا إِذْنًا بِمَا سَوَفَ يَبْقَى مَا بَقِينَا، وَيَسْتَدِيمُ الرَّجُلِ (7)
 وَإِذَا مَا نُجَلْتُ يَوْمًا فَمُؤَلِي - لَتُعَزِّي أَحَبَّتِي - كَمْ نَجَلًا! (8)
 وَاحْسِي الدَّمْعَ وَادْفِينِي سَرِيعًا، وَأَعِينِي سِوَايَ كَيْمَا يُجَلُّ (9)
 نُصَبَ عَيْنِي فَجَرُّ يُوَارِيهِ فَجَرُّ دَبَّرَ عَيْنِي، مُؤَلَّفٌ، مُفْتَجَلٌ (10)
 لَيْتَ شِعْرِي هَلْ، ثُمَّ هَلْ، آتَيْنَهُ؟ أَمْ يَحُولُنْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ الْأَجَلِ



-
- (1) أَيَطْلِيهِ: مثني أَيَطَّلُ والجمع أَيَاطِلُ: الخاصة. والحجل بتسكين الوسط: بياض في رجلِ الفرس.
 (2) مُهْتَجَلٌ: مُبْتَدَعٌ.
 (3) الْمَهْجُولُ: المومس، والمهجل: غمُّ المرأة بعينها.
 (4) رَجَلٌ: رَفَعَ صَوْتَهُ وَأَجْلَبَ.
 (5) اللَّمَى: سُمْرَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ فِي بَاطِنِ الشَّفَقَةِ. وَالنَّجَلُ: اتِّسَاعٌ مُسْتَحْسَنٌ فِي الْعَيْنِ.
 (6) بَجَلٌ: فَرَحٌ.
 (7) الرَّجُلُ: جمع رُجَلَةٍ بضم الراء وهي الرُّجولة.
 (8) جُجَلْتُ: طُعِنْتُ، وَالنَّجَلُ الْفِعْلُ.
 (9) يُجَلِّي: يُجَلِّي أَي يَسْبِقُ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مِنْ وَصَفِ الْفَرَسِ.
 (10) دَبَّرَ عَيْنِي: خَلَّفَهَا، أَي لَا يَرَى، عَكْسَ نُصَبَ. وَمُفْتَجَلٌ: مُخْتَلَقٌ.

وَاضِح

وَاضِحٌ أَنَّهُ هُنَاكَ، وَأَنَا فِي عَدِ زَيْمًا نَكُونُ الْفَرَائِسَ
فَمِنَ الْعَقْلِ أَنْ نَرَاهُ، وَإِلَّا فَكَأَنَّا نَقُولُ دُسَّ لِلدَّائِسِ
وَاضِحٌ أَنَّا سَنُرْمَى جَمِيعًا، فليَقَرَّ مَرُؤُسْنَا وَالرَّائِسِ
وَلتُطَامِنَ مِنْ دَهَّا ذَاتُ دَلٍّ، وَليدَعِ مَيْسَهُ المِعْقَلِ مَائِسِ
وَليدَعِ كِذْبَهُ مَهْوُنَ فَرْقِ فُرْقَتَهُ مَسَاجِدُ وَكِنَائِسِ



فَتَوَى لَكِنَّهَا مَرْفُوضَةٌ

أَحْسُ، يُرْفَرُ طَيْرًا بَصْدَرِي عِنْدَ الْعُدُوِّ وَعِنْدَ الْمَيْتِ
أَرَاهَا هُنَالِكَ، تُوحِشُنِي كُلَّ يَوْمٍ شَوَارِعُكُمْ وَالْبُيُوتِ
فَلَا تَحْسَبُونِي إِذَا مَا نَسَيْتُمْ لَأَنَّ الْبِعَادَ اسْتَطَالَ نَسِيَتِ
أَتَانِي صَوْتُ فَحِلْتُ - وَلَسْتُ الَّذِي قَدْ عَنَانِي - أَيُّ عُنِيَتْ
وَلَمْ يَدْرِ إِذْ فَرِحَ الْكَرَوَانُ وَلَعَلَّعَ فِي الصُّبْحِ أَيُّ أَسِيَتْ
طَلِيقٌ، يُكَلِّمُ خِلَانَهُ وَأُكَلِّمُ نَفْسِي، خَلَا وَشَجِيَتْ
وَلَمْ يَدْرِ وَهُوَ يَيْتُ الْهَوَى وَيَفْتُنُّ فِي الْبَثِّ أَيُّ هَوِيَتْ

وما بِيْ أَيْ - وَإِنْ كَانَ وَعَرًّا عَلَى الْمَرْءِ حَزُّ الْجَفَاءِ - جُنَيْتٌ
وَمَا بِيْ وَجْهٌ مَلِيحٌ، وَفَرْشٌ وَثِيْرٌ، وَلَيْلٌ، وَمَسْكٌ فَتَيْتٌ
وَلَكِنَّ مَا بِيْ أَيْ مُرَادٌ، وَمُفْتَقِدٌ، ثُمَّ أَيْ نُفَيْتٌ
إِلَى أَبَدٍ كُلَّمَا شَبَّهَتْهُ نَنَاءَى، وَخُلِّفَتْ نِضْوًا بَيْتٌ
وَأَظْلَمَ، أَرْحَى السُّدُولَ عَلَيَّ، فَلَمْ أَرَ شَيْئًا كَأَيِّ عَمِيَتْ
أَهْدِي النَّهَائِيَّةُ يَا زَائِرِي، أَفَدَّرَ لِي الْعَيْشُ فِي بَطْنِ حُوتٍ
بَقِيَتْ لِأَمْرٍ، وَأَمَّا أَنَا فَقُلْ لِي بَرِّكَ فِيمَ بَقِيَتْ
وُقِيْتُ، وَأَحْمَدُهُ أَنْ وُقِيْتُ، وَلَكِنْ لِأَيَّةِ جَدْوَى وُقِيْتُ
إِذَا كُنْتُ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَمُوتُ، فَقُلْ لِي لِمَاذَا إِذَنْ لَا أَمُوتُ
سَيُطَبَّقُ يَوْمًا، فَمَاذَا لَوْ أَيْ أَسَلَمْتُ سَقْفِي لِلْعَنَكَبُوتِ
وَفِيْمَ الْحَيَاةِ إِذَا طَرَحْتَنِي طُمُوْحًا تَوَلَّى، وَشَمَلًا شَتِيَتْ
كَزِقٌ رِيَّاحٌ، فَلَا أَنَا رَاجٍ، وَلَا أَنَا كَافٍ إِذَا مَا رُجِيَتْ
لَقَى، ذَا يَدَيْنِ، وَذَا قَدَمَيْنِ، وَلَكِنْ لَقَى، كَهَشِيْمٍ بَيْتٌ
وَلَيْتُ، وَهَأَنْذَا مُوْتَقٌ، يُعَجِّزُنِي الْقَيْدُ عَمَّا وَلَيْتُ
فِيَا نَفْسًا دَاخِلًا خَارِجًا فِيمَ أَنْتَ لَعَمْرِي إِذَا مَا عِيَتْ
وَيَا قَائِلًا إِنِّي مُذْنِبٌ خَسَأْتُ، وَسُقِّيْتُ مِمَّا سُقِيْتُ
عَلِمْتُ، وَلَكِنْ حَسَدَتْ الصَّبِيَاءُ، وَأَعْرَاكَ بِي أَنِّي قَدْ رُمِيْتُ
أَهْدِي النَّهَائِيَّةُ يَا زَائِرِي، أَفَدَّرَ لِي الْعَيْشُ فِي بَطْنِ حُوتٍ

أَلَمْ يَبْقَ لِي غَيْرُ أَيِّ دَبَبْتُ، وَأَيِّ أَمَرْتُ وَأَيِّ هَيْتُ
وَأَيِّ أَمْسَيْتُ أَضْعَاثَ حُلْمٍ، وَأَيِّ أَصْبَحْتُ بَطْنًا وَقُوتُ
وَأَيِّ بَكَيْتُ عَلَى طِفْلَةٍ بِلَا سَنَدٍ خُلِّفْتُ، وَبُكَيْتُ
أَلَمْ يَبْقَ لِي غَيْرُ أَيِّ أَحْسُ بِأَيِّ حُرْمَتُ وَأَيِّ ضَنْبَتُ
أَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْحَنِينُ، وَإِلَّا شَوَارِعُ مَذْكُورَةٌ وَيُوتُ
أَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ادِّكَارُ مَنَاطِرَ طَيِّ الْفَنَاءِ، إِذَنْ قَدْ ذُفِنْتُ
وَتَبًّا لَصَبْرِي إِذَا مَا رَضَيْتُ بِأَيِّ عُذَيْتُ وَأَيِّ كُسَيْتُ
وَأَنْ أَتَقَلَّبَ بَيْنَ رِجَالٍ كَأَعْجَازِ نَحْلِ، كَدُومٍ نَحِيَتْ
صَهَّ أَيْهَا الْوَاعِظُونَ وَذُلُّوا صَدِيًّا عَلَى الْمَاءِ، إِنِّي صَدَيْتُ
حَنَنْتُ لِرِضْوَى، وَأَوْلَى بِكُمْ إِذَا لَمْ تَشْفُوا الطَّرِيقَ الشُّكُوتُ
أَشِيرُوا عَلَيَّ، وَلَكِنْ خُذُوا بِيَدَيَّ لِأَشْعُرَ أَيِّ رُعِيَتْ
وَأَمَّا الْكَلَامُ الْكَلَامُ فَمَحْضُ هَوَاءٍ، وَعَنْهُ وَعَنْكُمْ غَنِيَتْ
إِذَا لَمْ يُنَلْنِي الدُّعَاءُ الرَّبِيعَ فَفِيمَ إِذَنْ دُعَيْتَ عَشْتَرُوتُ
أَزِيحُوا الطَّيْنَ فَإِنِّي مَشُوقٌ إِلَى رُكْعَةٍ رُكِعَتْ فِي فُتُوتُ
دَعُوْنِي وَهَمِّي، أَكْبَرُ مِنْ مَوَاعِظِكُمْ هَذِهِ الْمَرْمِيَتْ
دَعُوْنِي دَعُوْنِي إِلَى خَلْوَتِي، وَإِنِّي فِيهَا لَفِي مَلَكُوتُ
وَرُبَّمَا انْفَتَحَتْ كُؤُهُ، وَجَاءَ الْحَيَا فَجَاءَهُ وَرَوِيَتْ
وَرُبَّمَا هَبَطَتْ صَهْوَةٌ وَطَرَتْ عَلَيْهَا إِلَى حَيْثُ شَيْتُ

أَهْدِي النَّهْيَةَ يَا مُفْتِيًا يُزِينُ لِي جَاهِدًا أَنْ أَمُوتَ
وَمَنْ لِلْمَكَارِمِ، مَنْ لِلْعِظَائِمِ، مَنْ لِلْعِيَالِ إِذَا مَا بَلَيْتَ
أَهْدِي النَّهْيَةَ، كَلًّا، وَتَبًّا لِهَذَا الْمِحَازِ وَهَذِي التُّعُوثُ
أَهْدِي النَّهْيَةَ، كَلًّا، صَهٍ، سَاحِيَا، سَأَصْبِرُ مَهْمَا لَقَيْتَ
وَمَا جَدَّ شَيْءٌ، فَلَيْسَ الَّذِي أَصْطَلِي الْآنَ أَوْجَعَ مِمَّا صَلَيْتَ
سَاحِيَا، سَتَعَصِمُنِي مِرَّةً تَعَافُ التَّشَكِّي، وَبَأْسُ صَمُوتِ
سَيَنْفَلِقُ الصَّخْرُ يَوْمًا لِأَخْطُو عَلَى غَيْرِ هَذَا التُّرَابِ الْمُقَيْتِ
وَمَا زَالَ، مَا زَالَ عَزْمِي مَعِي، وَلَيْسَ بَضَاوٍ إِذَا مَا ضَوِيَتْ
وَسَوْفَ يَرَانِي غَدِي مِثْلَمَا رُئِيتُ، وَأَصْلَبَ مِمَّا رُئِيتُ
وَسَوْفَ يَرَانِي لِدَرْكِ الْمَعَالِي، وَلَيْسَ لِمَا آدِنِي، أَسْتَمِيتُ
وَسَوْفَ يَرَانِي ذُؤُوجِبْرُوتِ، وَإِنْ كَآثَرُونِي، ذَا جَبْرُوتِ
وَإِنْ حُشِي النَّاسُ فَشَا فِلَائِي مَضَاءً وَحَدًّا وَحَدًّا حُشِيَتْ
بُنَيْتُ، فَكَيْفَ أَهْدَمُ نَفْسِي وَقَدْ شَابَ دَهْرِي حَتَّى بُنَيْتُ
وَمَاذَا أَقُولُ إِذَا عَاتَبْتَنِي عُيُونُ عَلَى الْيَأْسِ لَمَّا قَدَيْتُ
وَمَاذَا أَقُولُ لِرَجْعِ الصَّدَى وَهُوَ يَدْوِي: تَخَادَلْتَ لَمَّا ابْتُلَيْتُ
سَاحِيَا، سَاحِيَا، سَاحِيَا، لِأَنَّ هُنَالِكَ - تَحِيَا - شُجَيْرَةٌ تُوثُ
لِأَجْلِكَ رَضْوَى أْبَيْتُ السُّفُوطَ، لِأَجْلِكَ يَا أُمَّ رَضْوَى قَوِيَتْ
وَلَوْ زَارَنِي بُكْرَةً كَرَوَانَ سَأُخْبِرُهُ أَنَّني قَدْ حَيَيْتُ



يا فاطمةُ اعْمَلِي

أَتَانِي أَنَّ عِيَالِي جَاعَتْ، ففُلتُ: وجَاعَتْ عِيَالُ الْعِرَاقِ
أَقْلِي الْأَسَى أُمَّ رَضْوَى، دَعِيهِ، فَمَا فِيهِ لِلتَّابِعِيهِ خَلَاقُ
وَفِي الْبَيْتِ نَافِذَةٌ، فَافْتَحِيهَا، أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَدَى الْإِنْعِلَاقِ
لِذَرْفِ الدُّمُوعِ، وَلَكِنَّهَا لِحُوبِ الْمَجَاهِلِ هَذِي الْمَآقِ
حِيَالِكِ دُنْيَا، فَسِيحِي وَجُوسِي، لِكَيْلَا يَضِيقَ عَلَيْنَا الْخِنَاقِ
مُوطَّأَةٌ، لَا لِحَجَرٍ وَضَبٍّ، وَلَكِنْ لِرِاقِيَةِ وَلِرَاقِ
وَلَا تَزْهَدِي، أَخْطَأَ الْوَاعِظُونَكَ، إِنَّ أَنْسِحَابَكَ مِنْهَا أَنْسِحَاقُ
وَلَا بُدَّ مِنْ تَعَبٍ، فَاتَّعِبِي، وَلَا بُدَّ مِنْ عَبْرَاتٍ تُرَاقِ
وَلَا يَثْنِينَنَّكَ خَوْفُ الْمَوَامِي، وَبُعْدُ الْمَرَامِي، وَكُثْرُ الْمِشَاقِ
فَمَا نَحْنُ إِلَّا خِشَاشٌ وَدُودٌ، إِذَا فَلَّ مِنْ عَزْمِنَا الْإِعْتِيَاقِ

حِيَالِكِ دُنْيَا، وَلَكِنْ حَذَارٍ مِنْ شَبَكِ الْكَلِمَاتِ الرَّقَاقِ،
 سِيَاسِيَّةً، فَاحْذَرِي كَيْدَهَا، وَأَعِدِّي لَهُ قَبْلَ كُلِّ اتِّفَاقٍ
 عَدُوٍّ لَنَا مِنْ قَدِيمٍ، جَمِيعًا، جَمِيعًا، عَدُوٌّ لِيَوْمِ التَّلَاقِ
 مُقَرَّرَةٌ أَنْ نَذِلَّ لَهَا، أَوْ نَزُولَ كَمَا زَالَ عَصْرُ النَّيَاقِ
 حِيَالِكِ نَارٌ تُعَدُّ، وَنَحْنُ جَمِيعًا يُرَادُ لَنَا الْإِحْتِرَاقُ
 لِيُدْفَنَ تَارِيخُنَا فِي الْبَقِيْعِ، وَيَطْوِي اللَّيَالِي الْخَوَالِي مَحَاقٍ
 حِيَالِكِ دُنْيَا فَمُدِّي الْمَدَى، وَلَسْنَا بِشَيْءٍ إِذَا هُوَ ضَاقَ
 إِذَا كَانَ جُوعُهُمْ لَا يُطَاقُ، فَكَمْ مُنْكَرٍ حَوْلَنَا لَا يُطَاقُ
 سِيَائِي الطَّعَامُ، فَمَاذَا لَدَيْكَ إِذَا لَمْ يَعُدَّ شَاغِلًا الْإِرْتِزَاقُ
 كَفَى حَزَنًا، وَانْظُرِي، وَاعْضِي عَلَيَّ مَنْ أَجَاعُوا عِيَالَ الْعِرَاقِ
 وَشَدُّوا عَلَيْنَا جَمِيعًا - فَبَكِي لِهَذَا إِذَا مَا بَكَيتِ - الْوَثَاقُ
 كَفَى حَزَنًا، وَانْظُرِي، وَاعْضِي، أَمَامِكِ - لَوْ تَنْظُرِينَ - الْوَهَاقُ
 وَنَحْنُ جَمِيعًا نُسَاقُ كَأَنَّا خِرَافٌ إِلَى ذَابِحِيهَا نُسَاقُ
 كَفَى حَزَنًا، وَأَعِدِّي الْعِيَالَ، لِنَكْسِبَ مِنْ بَعْدِ خُسْرِ السَّبَاقِ
 سُبُقَنَا، وَفِي الْوُسْعِ - لَا تَسْمَعِي لِأَعْرَبَةٍ نَعَقَتْ عَاقٍ عَاقٍ -
 تَدَارِكُ مَا فَاتَنَا وَاللَّحَاقُ، وَجُوبُ الْمَجَاهِلِ بَعْدَ اللَّحَاقِ
 مَتَى تَلِدُ الْأُمَّهَاتُ وَلِيدًا إِلَى غَيْرِ مَا يَمَلَأُ الْبَطْنَ نَاقٍ



رسالة إلى صاحب عاشق

أنشدت هذه القصيدة في دار العلوم، واتفق أن كان يوم إنشادها موافقاً لانقضاء خمسمئة عام على سقوط غرناطة في 1492م. فقدّمت لها بالكلمة التالية:

في مثل هذه الأيام، قبل خمسة قرون، ألقى آخر ملوكنا في الأندلس نظرته الأخيرة على الوطن الغارب الذي ظل في يدنا ثمانية قرون، غلبه الانفعال؛ فبكى، لكن أمه كان لديها انفعال من نوع آخر، التفتت إليه قائلة:

إبك مثل النساء مُلْكًا مُضَاعًا، لم تحافظ عليه مثل الرجال

إلى شهدائنا هناك الذين سقطوا في ساح المعارك وشهدائنا الذين ظلوا في مواطنهم بعد آخر معركة؛ لئذبحوا في بيوتهم أو ليُجبروا على التَّصَرُّ.

إلى أولئك المجبرين على ترك دينهم الذين كان أحدهم يُلقَّبُ كلمات النصرانية فَيَفْجَأُ القسيسَ بكلمات أخرى: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله). إلى شهدائنا في الأندلس، وفي كل أندلس قادمة إذا قدر الله، حتى يأذن سبحانه بالفرج، ويجيئنا بالنصر؛ لِيَدْخَلَ خَلْقُهُ في الدين أفواجا.

بانت سعادُ فلا يتلفنُ فؤادك بينُ
نريدُه لليالِ أفسى ، أراها تدنو
حنت حناياك لما مضى من الليل وهنُ
وأنت سهرانُ تستنطقُ الخيالَ ، نجحُ
فهل أتاك حديثُ الطُغاةِ لما اطمأنوا
وقيل جدَّ جديدٌ ، وخالسَ الغيبَ جنُ
وكاد يُلقي عصاهُ بعد الترحُّلِ كَوْنُ
كَأَنَّ شمسَكَ هذي ما ذرَّ منها قرنُ
كَأَنَّ أمسَكَ دارُ عفتَ ، ورسمُ ، ودمنُ
حنت حناياك حتى أبدى الصبابةَ جفنُ
فهل أتاك حديثُ الجِيعِ لما حنُّوا
وأنَّ ما هاجَ تحنائهمُ : دقيقٌ وسمنُ
رمى رماءةً فقلنا : لا بأسَ ، سُتُوا وسُنُوا
وإنما قالَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَقُولَ : الدَّيْنُ
وإنما قالَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَقُولَ : الجُبْنُ
سَنُوا لَنَا ، وَلَعَمْرِي لو نَرْتَضِي ما سَنُوا
لسوف نغدو هُنُودًا حُمْرًا ، خَلَاكِ الأَفْنُ
يا صَاحِ ما جدَّ شيءٌ ، وإنما جدَّ مَيْنُ

سَيَدْفَعُ النَّاسَ نَاسٌ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ دَهْنٌ
وَمِنْدُ كَانَ زَمَانٌ وَالنَّاسُ ذَتَبٌ وَضَانٌ
وَلَنْ يَزُولَ مِنَ الْأَرْضِ عَدْلُهُمْ وَالْعَبْنُ
إِلَّا إِذَا جَاءَ كُلَّ الَّذِي عَلَيْهَا الْحَيْرُ
أَمَّا لِمَاذَا؟ ، فَشُغْلِي بِذَا وَشُغْلِكَ وَهَنْ
وَالْحَيْرُ عِنْدَ الْمَوَاضِي ، عِنْدَ الْعَوَالِي تُسَنُّ
لِيَجْرِي الدَّمُ نَهْرًا ، أَوْ يَتَّقِينَا الطَّعْنَ
الْحَيْرُ سَمَلٌ وَلَمْ ، وَمَهْيَعٌ مُسْتَسَنُّ
وَأَنْتَ فِي الْأَصْلِ جُزْءٌ ، مَاءٌ وَصَلْبٌ وَهَنْ
أَبٌ ، وَلَكِنَّكَ ابْنٌ ، وَجَدُّ أَجْدَادِكَ ابْنٌ
مَالِي رَأْيِكَ تُنْمَى فَيَفْجَأُ الْجِبَلَ خَتْنُ
وَهَلْ يُقَالُ لِعُضْنٍ أَهْوَتْهُ فَأَسُّ عُضْنُ
تَمَيَّرَ النَّاسُ فَاَنْظُرْ مَنْ فِي الْخَلَائِقِ نَحْنُ
حَالَ الزَّمَانُ وَحَلْنَا ، وَالْعَيْشُ صَفْوٌ وَأَجْنُ
قَدْ جَمَعْنَا بَوَادٍ ، وَفَرَّقْنَا مُدُنُ
كَانَتْ قُرَيْشُكَ أُمَّا ، فَأَيِّنَ ذَلِكَ الْحِضْنُ
أَنْى سَمَرَفْنَدٌ فَخَدٌ ، وَحَلَّ طَنْجَةَ بَطْنُ
ثُمَّ أَنْتَهَيْنَا كَأَنَّ الرَّجَالَ فِي الرِّيحِ تَبْنُ

وليس هذا برأيي ، الرَّأْيُ أَنْفٌ يَصْنُ
 وَأَنْ تُفَدِّيَ خِدْنَآ ، وَأَنْ يُفَدِّكَ خِدْنُ
 صَدِّ الْعَوَاصِفِ دَوْحٌ ، وَوَاجِهَ الْقِرْنِ قِرْنُ
 وَالْحَيْرُ شَمْلٌ وَلَمْ ، وَقَبِلْتَانِ ، وَرُكْنُ
 فَصْمٌ وَصَلٌّ ، وَأَحْرِمٌ ، وَلِيْمَحُ رَبِّكَ يَقْنُ
 وَأَكْفُرُ إِذَا شِئْتَ لَكِنْ مُحَمَّدٌ لَا يُزْنُ
 لَوْ زَالَ ؛ زَالَ عَنِ الْبَرِّ وَالْعَوِيِّ الْمَجْنُ
 يَصَاحُ حَالَ زَمَانٌ ، وَعَاقَلْتَنَا السَّنُ
 فَأَيْنَ أَنْتَ وَأَيْنِي فِي الْعَالَمِينَ وَنَحْنُ
 رَأَى بِيَاضُ النَّصَارَى أَنَّ الْحَسَّاسَةَ لَوْنُ
 وَأَنَّ حَبْرِي لِأَنِّي لِلْوَاحِدِ الْفَرْدِ أَعْنُو
 ذَنْبٌ يُعَاقَبُ فِيهِ طِفْلٌ وَشَيْخٌ مُسِنٌ
 فَكَيْفَ يَطْلُعُ يَوْمٌ تَضُمُّنَا فِيهِ عَدْنُ
 وَكَيْفَ يَجْزِي هَوَانَ الْمُهَانَ سَلْوَى وَمَنْ
 مَتَى رَأَيْتَ حِدَاءً عَلَى تُرَابٍ يَحْنُو
 حَالَ الزَّمَانُ ، وَقَدْ آنَ لِلشَّهَادَةِ أَيُّنُ
 فَلَا تُكَنَّ إِذَا قَالَتِ الْكَرَابِيحُ : كُنُّوا
 وَإِنْ يَخْنُكَ مَلِيكَ فَقُلْ : أَجَلٌ هُوَ حَوْنُ

أَوْ قِيلَ : عَهْدٌ جَدِيدٌ ، فَقُلْ : دُجِّي وَدُجْنُ
وَكَالشَّمَالِ جُنُوبٌ لَوْ أَضْمَرَ الشَّرَّ جَوْنُ
يَا صَاحِ عَنَّتْ قِيَانٌ لِكَيْ يُرَاحِيكَ لَحْنُ
فَلَا يُشِيعُ فِيكَ أَمْنًا ذَاكَ الْحَرِيرُ الْأَعْنُ
وَلَا يُشِيعُ فِيكَ أَمْنًا فِي الْبَرْدِ صُوفٌ وَقُطْنُ
وَلَا يُشِيعُ فِيكَ أَمْنًا كَأَسُّ ، وَنُقْلٌ ، وَكِنَّ
رَمَى زُمَاهُ فَوَلَّى لَمَّا ذَلَّلْنَا الْأَمْنُ
وَالْأَمْرُ لِلَّهِ ، يَكْبُو الْجَوَادُ وَهَوَ رِفْنُ
وَإِنْ أُحِمْ قَضَاءً ، فَلَيْسَ لِلْخَلْقِ إِذْنُ
بَانَتْ سُعَادُ ، وَبَاتَتْ بَعْدَادُ وَهِيَ تَعْنُ
عَنَّاكَ حُبٌّ وَعَنِّي رَبُّ الْعِرَاقَيْنِ ضِعْفُ
وَبَيْنَ حُرٍّ وَعَبْدٍ - يَا ابْنَ الْأَعْرَبَةِ - بَوْنُ
خَلَكَ ذَمٌّ ، يَنْدِيمُ الرَّجَالَ أَنْ يَرْفَعُوا
وَهُمْ يَرُونَ عَدُوًّا فِي ذَبْحِهِمْ يَفْتَنُ
تَبْدُو السَّكَاكِينُ حِينًا ، وَحِينَةً تَسْتَجِبُ
أَبْلَغُ سُعَادَكَ أَنَّ السَّرِيرَ قَيْدٌ وَسِجْنُ
أَنَا وَجَدْنَا لِمَعْنَى عَبَاهُ فَرْجٌ وَبَطْنُ
أَنَّ التَّوْفِيزَ وَعَدُّ ، جَعَى تُوَالِيهِ أَجْنُ

شُفَّتْ فِجَاجٌ ، فَهَذَا سَهْلٌ ، وَذَلِكَ حَزْنٌ
لَيْسَتْ شِيرَ خَيْالِ الْوَدْيَانِ قُنٌّ وَرَعْنٌ
وَعَيْمَةٌ كَنَدِيفٍ شَفَّتْ ، وَأُخْرَى دَجْنٌ
شُفَّتْ فِجَاجٌ لِيَجْتَازَ ظَاعِنُونَ وَطُغْنٌ
وَتَمْحَرُ الْبِرِّ وَالْبَحَرَ وَالسَّمَوَاتِ سُنْفُنٌ
وَتَحْتَفِي بِطُيُورٍ غَبَّ الْجُهَيْدَى وَكُنٌ
يَا صَاحِ غَنَّتْ قِيَانٌ لَيْسَتْ مِيْلَكَ مَجْنٌ
وَعَلَّمَ الْبِنْتَ دَرَسًا فِي كَيْفِ تَعْرِى تِقْنٌ
وَالرَّفْقُصُ إِنْ كَانَ فَنَّا فُصُونٌ عِرْضِكَ فَنٌ
وَلَدَتْ لِلْعَارِ بِنْتًا لِعَيْرٍ حِلٌّ تَرْنُو
أَبْلَغُ سَعَادَكَ أَنَّ الْعَفَافَ أَيْضًا حُسْنٌ
دَعَاكَ فِي شَفَتَيْهَا ، وَوَجْنَتَيْهَا ، دُهْنٌ
وَسَوْفَ يَبْقَى طِبَاقٌ ، مَهْمَا اسْتَفَاضَ الرَّيْنُ
حَتَّى الْقِيَامَةِ ، يَبْقَى زَيْنٌ ، وَيَبْقَى شَيْنٌ
أَفْدِي ظِبَاءَ فَلَاقٍ لَمْ يُعْوَهِنَ الرَّرَطُنُ
وَلَا تَحَاضَعْنَ كَيْ يَسْتَبِيكَ جَرَسٌ لَيْنٌ
وَلَا تَتْنَى إِذَا مَا سِرْنَ الْقَوَامُ اللَّدْنُ
يَا صَاحِ حَالِ زَمَانٌ ، وَعَاقَلْتَنَا السَّنُّ

وَرَاحَ يُذَوِي لِأَمْرِ وَجْهِهِ وَوَجْهَكَ عَضُنُ
 فَلَا تَشْكُ ، تَدْنَى حُزْنٌ ، وَأَشْرَفَ حُزْنُ
 بِنَاءٍ فِرْعَوْنَ ذُرٌّ ، وَطُورُ سَيْنِينَ عِهْنُ
 وَلَيْسَ إِلَّا سَدِيمًا خَصْرٌ ، وَنَهْدٌ ، وَعَيْنُ
 فَاسْتَمْسِكَنَّ إِلَى أَنْ يَضِيقَ بِالْمَاءِ شَرُّ
 لَسْنَا الَّذِينَ حُشِينَا فَشًّا ، وَإِنْ رُضَّ مَتْنُ
 لَسْنَا زَقَاقَ رِيَاحٍ ، لَسْنَا ذُبَابًا يَدِنُ
 وَإِنْ يَكُنْ لَكَ أَمْسٌ ، فَفِي غَدٍ لَكَ شَأْنُ
 نَحْنُ الَّذِينَ إِذَا مَا دَعَا الرَّدَى مَا ضُنُّوا
 صَلَّوْا وَصَامُوا ، وَلَكِنْ عِنْدَ الْكَرْيَةِ جُنُّوا
 سَاقَتْ لَنَا حَيْثُ تَهْمِي خَرَجَهُنَّ الْمُرْنُ
 إِلَيَّ لَمَحْتُ جَنِينًا تَحْتَ الرَّمَادِ يَعْنُ
 اسْمٌ وَفَعْلٌ وَحَرْفٌ ، وَلَنْ يُجَبَّكَ لُكْنُ
 وَالنُّبْلُ صَعْبٌ فَأَيَّانَ تَسْتَقِيمُ اللُّسْنُ
 يَا صَاحِبَ أَحْسَنِ ، فَبُعْيَا الْكَمَالِ فَرَضُ عَيْنُ
 وَلَا تُهَوَّنْ مَقَالَ الْحَلِيلِ : نَجْلٌ ، وَخَبْرُ
 الْعَبْقَرِيَّةُ وَخَبْرِي ، وَالْعَبْقَرِيَّةُ وَزَنْ



مناجاة للمتنبّي

أَيْهَا الْحَالِمُ الْعَظِيمُ تَذَكَّرْتُكَ لَمَّا لَمْ أَلْفِ حَوْلِي خِلًا
هَبَطَ اللَّيْلُ، أَيْنَ مِنِّي بَوَادٍ جُرَّتْهَا كَالشَّهَابِ يَا نَجْمُ لَيْلًا
مَا الَّذِي كُنْتَ تَبْتَغِي؟ مَا خَبِيئَةُ أَبْتِ النَّائِبَاتِ أَنْ يَتَجَلَّى
هَبَطَ اللَّيْلُ فَادَّكَّرْتُكَ أَمْسًا قِيلَ: وَكَلَى، وَقُلْتُ: لَمْ يَتَوَلَّى
وَأَنَا مُهْمَلٌ كَزِقِّ رِيَّاحٍ، لَيْسَ عِنْدِي إِلَّا "عَسَى" وَ"لَعَلَّا"
وَلَوْ أَنَّ الْأَحْجَارَ تَعْقَلُ فَجَعَتْ فَجَوْهَةً فِي الْجِدَارِ كَيْ أَتَدَلَّى

لِتُلَاقِي خَيْلِي وَرَجُلِي - وَقَدْ عَادَ إِلَيْنَا التَّائِرُ - خَيْلًا وَرَجُلًا
أَفْهَازٍ أَنَا؟! تَقُولُ قَوَافِيكَ لِمَنْ آثَرُوا السَّلَامَةَ: كَلَّا
ضَلَّ بَاغِي النَّجَاةِ بِالْحَبْنِ ضَلًّا؛ كُنَّا فِي نَهَايَةِ الشُّوْطِ قَتَلَى
هَبَطَ اللَّيْلُ فَادَّكَرْتُ بِلَادِي، وَلِسَانِي، وَخَنَجْرًا مُسْتَلًّا
يَسْتَعِينُ الدُّجَى لِيَبْتُغِرَ عَمْدًا أُمَّةً بِالكَوَاكِبِ الزُّهْرِ حُبْلَى
خَدَعَتْهَا رِيحُ الشَّمَالِ فَبَاتَتْ فِي الهَوَاءِ العَلِيلِ تَنْشَقُّ سُلا
قِطْعَةً قِطْعَةً تَخُورُ قُوَاهَا، أَيَّمَا حِينَةٍ، وَحِينًا تَكْلَى
شَعَلَتْهَا عَنِ المَصِيرِ أَهَازِيحُ، وَسَوْقٌ تَضِيحُ زَمْرًا وَطَبْلًا
وَرِجَالٌ صَلَّتْ وَصَامَتْ وَقَالَتْ - فِي طُمَأْنِينَةٍ - وَجَدْنَا الحَلَّا
قَلْتُ: هَاكُمْ كِتَابِنَا فَاقْرَؤُوهُ، إِنَّمَا البِرُّ أَنْ تَكُونُوا أَعْلَى
هَبَطَ اللَّيْلُ، بَيَدَ أَنْ صَبَاحًا فِي قَوَافِيكَ لَا يَزَالُ مُطِلًّا
وَسَيَنْدَاخُ - أَنْبَأْتَنِي ضُلُوعِي أَنْ سَيَنْدَاخُ فِي ضَحَى لَا يَبْلَى



مناجاة لعبد اللطيف

رحم الله أبا همام، أما بعد،

فعدني قبل البدء تنبيهانٍ يَخَصَّانِ القصيدة. الأول أني استوحيت أبياتاً أربعةً وقعتُ عليها و أنا أقلبُ حماسة أبي تمامٍ لمن دعاها "صفيّةً الباهليةً" ترثي أباها الوحيداً أو الواحدَ كما قالت.

تقول:

كُنَّا كغصنين في جُرْثومةٍ سمِّيًا حينًا بأحسنٍ ما يسمو له الشجرُ⁽¹⁾
حتى إذا قيل قد طالت فروغُهما، وطاب فيآهما، واستُنظر الثمرُ
أخنى على واحدٍ ربُّ الزمان، وما يُبقى الزمانُ على شيءٍ ولا يَدُرُ
كنا كأنجمٍ ليلٍ بينها قمرٌ يجلو الدجى فهوى من بيننا القمرُ

والبيتُ المستوحى هو الثالث : أخنى على واحدٍ، ووجه الشبه
أن صاحبي كان عندي كأنه أخٌ وحيد. أما التنبيهُ الآخر فهو كلمة
جاءت في البيت الأول من مناجاتي للراحل العزيز، ربما احتاجت إلى
بيان. أقول: "قُلْ للنفاة حسأتم". والنفاة جمعُ نافيةٍ، وهُم نفاة القَدَرِ،
وهم الفرقة الشهيرة المعروفةُ في تاريخ علم الكلام باسم "المعتزلة" أو
"الجهمية" أحيانًا. والمُسَلَّم عند أهل الملة أن ما ذهبوا إليه باطل بلا
ريب.

(1) في جرثومةٍ : في أصل شجرة. وسمِّيًا : ارتفعا.

قُلْ لِلنَّفَاةِ حَسَاتُكُمْ؛ طاب مُرْتَحَلِي، وَفَوْقَ كُلِّ جَهولٍ مِنْكُمْ الْقَدْرُ
وَلَمْ أُزَلِّ، زَالٌ قَيْدٌ رَاسِفٌ أَبَدًا فِيهِ، عَلَى رَغْمِ كُلِّ مِنْهُمْ الْبَشْرُ
وَلَمْ أُزَلِّ، زَالٌ وَقُرْ آدَنَى زَمَنًا وَانزَاحَ، فَانزَاحَ عَنِي الْوَيْلُ وَالْوَضْرُ
وَطَاب مُرْتَبِعِي، حَوْلِي هُنَا شَجْرٌ، حَوْلِي هُنَا خَضِرٌ، حَوْلِي هُنَا زَهْرٌ
وَبَاسَقَاتٌ إِذَا مَا شَعْتُ طَيِّعَةٌ، فَلَوْ رَغِبْتُ آدَنَى مِنْ كَفَى الثَّمْرِ
هُنَا فَوَاكِهِ أَنْوَاعٌ، وَ مُتَّكَأٌ، وَإِنْ نَشَأَ نُصِبْتُ مِنْ تَحْتِنَا سُرُرٌ
هُنَا رِيَّاحِينَ أَنْوَاعٌ، هُنَا أَرْجٌ، يَضُوعٌ مِنْ حَيْثُ لَا يُدْرِي وَيَنْتَشِرُ
هُنَا كَذَلِكَ غَابَاتٌ، هُنَا دَغَلٌ - لَكِنْ أَمِينٌ - هُنَا ضَالٌ، هُنَا سَمُرٌ
وَطَارَ طَيْرٌ هُنَا، لَا يَشْتَكِي سَعْبًا، وَاسْتَقْبَلْتَهُ حَفِيَّاتٍ بِهِ وَكُرٌ
أَرَى كَذَلِكَ حَوْلِي هَا هُنَا نُهْرًا، تَهْتَرُ، تَخَضَّرُ فِي أَتْبَاجِهَا جُرُرٌ
وَمُجْمَلُ الْقَوْلِ أَنْ لَا شَيْءَ عِنْدَكُمْ إِلَّا - هُنَا - هُوَ خَيْرٌ، وَهُوَ مُبْتَكَّرٌ
فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ، ذَا خَيْرٌ لَكُمْ أَبَدًا مِنْ أَنْ يُزَيَّنَ مَا جِئْتُمْ بِهِ الْبَطْرُ
نَقُولُ جِئْنَا وَرُحْنَا لَا الْمَجِيءُ بِنَا وَلَا الرَّوَّاحُ، فَفِيمَ الْكِذْبِ وَالْأَشْرِ
وَفِيمَ يَزْعُمُ زَعَامُونَ أَنَّهُمْ - مِنْ بَعْدِ هَذَا - حِيَازِي، ضَلَّةً نَظَرُوا
النَّفْيِ إِنْ كَانَ نَفِيًّا مَطْلَقًا سَفَهُ، وَ الشُّكُّ عَجْزٌ، بِهَذَا تَحْكُمُ الْفِطْرُ
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، إِنْ الْأَمْرَ قَاطِبَةً لِلَّهِ، فَلْيَدِكِرْ - إِنْ شَاءَ - مُدَكِرُ
عَبْدَ اللَّطِيفِ كَأَنَّكَ الْآنَ تَسْمَعُنِي، كَذَا الْحَدِيثُ، فَلَا يَسْتَغْرِبُنَّ عَمْرُ
أَحْسَنْتَ؛ قَالَ أَنَسٌ لَا يِنَاسِبُنَا شِعْرُ نَمْتُهُ الْفَلَا وَالْأَثْنُ وَالْبَعْرُ

وقلت: يُبْطِلُ فِعْلُ الدَّهْرِ زَعْمَكُمْ، فَمَا تَخَلَّفَ عَنِ إِيقَاعِهِ عَصْرُ
 الشَّعْرِ مِنْ نَفْسِ الرَّحْمَنِ مُقْتَبَسٌ، لَهُ عَلَى مَا سِوَاهُ السَّبْقُ وَالصَّدْرُ
 أَمَّا الزَّمَانُ فَذَا حَشَوُ، حَوَادِثُهُ كَأَنَّهَا لِنَسِيجِ النَّاسِجِ الْوَبْرُ
 وَإِنَّمَا اهْتَزَّتْ مِنْ قَبْلِ اهْتِزَازَتِهِ - فِي عَالِمِ الْغَيْبِ قَبْلَ الْوَاقِعِ - الْوَبْرُ
 مُسْتَفْعَلُنْ فَاعِلُنْ مُسْتَفْعَلُنْ فَعَلُنْ، لِحْنٍ مِنَ الْمَلَأِ الْعُلُويِّ يَنْحَدِرُ
 أَصْلُ، يَغُورُ بَعِيدًا، رَاسِخًا أَبَدًا، وَلَيْسَ زَهْوًا بِأَذْنَى الْهَبِّ يَنْتَشِرُ
 وَهَلْ بَنَى قَطُّ بَانَ غَيْرَ مُفْتَكِرٍ، إِذَنْ فَذَاكَ بِلَا رَيْبٍ هُوَ الْهَدْرُ
 أَحْسَنْتَ؛ قَالَ أَنَسٌ مُلِّئُوا حَنَقًا، كَأَنَّهُمْ فِي عَزِيزٍ عِنْدَهُمْ وَتَرَوْا
 عَرُوضُنَا عَسِرٌ، وَنَحُونَا عَسِرٌ، وَصَرَفُنَا عَسِرٌ، وَدَيْنُنَا عَسِرٌ
 وَقَلْتُ: مَاذَا إِذَنْ يَبْقَى، لَقَوْلِكُمْ هَذَا هُوَ الْبَاطِلُ الْبَوَاحُ وَالنُّكْرُ
 لَا كَانَ - إِنْ كَانَ مَبْغَاكُمْ تَنْكُرُكُمْ لِلْوَحْيِ، أَوْ لِلْسَانِي - ذَلِكَ الْيَسْرُ
 أَحْسَنْتَ؛ قَالَ أَنَسٌ: لَيْسَ يُنْهَضُنَا مَاضٍ تَوَلَّى، غَرِيبُ الْوَجْهِ، مَنْدَثِرُ
 وَقَلْتُ: أَسْرَفْتُمْ، بَلْ سَوْفَ يُنْهَضُنَا، وَسَوْفَ يُنْهَضُنَا، أَنْ يُتَفْتَى الْأَثْرُ
 أَحْسَنْتَ؛ قَالَ أَنَسٌ: فَوْقَ مُكْنَتِنَا مِنْ بَعْدِ مُكْنَتِهِ أَنْ يُدْرَأَ الْخَطْرُ
 وَقَلْتُ: بَلْ لَمْ يَزَلْ فِي طَوْقِنَا عَمَلٌ، وَسَوْفَ يَنْفِي الرِّزَايَا فَتِيَّةً صَبَرُوا
 لَهُمْ بَعِيرِ الْمَخَازِي وَالْحَنَا شُعْلٌ، وَرَاقَهُمْ فِي سَبِيلِ الْعِرَّةِ السَّهَرُ
 عَبْدَ اللَّطِيفِ وَأَنْتِ الْآنَ تَعْلَمُ مَا يَنْفِي الشُّكُوكَ، وَمَا عَيَّتْ بِهِ الْفِكْرُ
 أَمْرِسْ أَنْتِ لِلضُّلَالِ قَافِيَةٌ، تَقُولُ لِلنَّاسِ لَا تَغْرُرْكُمْ الصُّورُ

فما نهاراً وما ليلاً، وما فَلَكَ، وما سديمٌ، وما شمسٌ، وما قمرٌ
وما حصاةٌ، وما رَمْلٌ، وما جَبَلٌ، وما سماءٌ، وما أرضٌ، وما مَطَرٌ
مَنْ قال أَعْلَمُ غَيْرٌ، عند خالقنا - وليس عند سواه - الخُبْرُ والخَبْرُ
فسرّحوا الطَّرْفَ في الموتى الألى عَبَرُوا، كم غَيْرِكُمْ، وكأَيِّن قَبْلِكُمْ سَجِرُوا
أمرسِلْ أنت للأعراب قافيةً تقول كُفُوا، عسى إن دُكِرُوا أزدَجِرُوا
المالُ لله، لا للمترفين، ولا للظالمين، فلا يَعْلو ويفتخروا
أَمُذِكِرْ أنت أهلَ الغرْبِ أَنهْمُ، وإن سما عَلِمَهُمْ جَدًّا، وإن نُصِرُوا
بَعَوَا، وأنّ لدينا مثلما مَكُرُوا مَكْرًا، فلا يُعْجِبُنَّهُمْ أَنهْم قَدَرُوا
وأنه إن يكن فينا الألى خَنَعُوا، فثَمَّ شُمْسٌ أَبَاهُ غَيْرُهُمْ غَيْرٌ
شُمُّ دُهَاهُ رُمَاهُ قال قائلُهُمْ، لَمَّا استحرَّ الأذى، واستفحل الضَّرُّ
وعندما بَلَغَ السَّيْلُ الرُّبَى، وطغى فوق الرُّبَى، وطغى واستوحش التترُ
وبان أن الحوارَ المُدْعَى عَبَثٌ، وأنّ داءٌ قديمًا لم يَزَلْ يَغِرُّ
و أنّ كلَّ مَرَامِ الغرْبِ ذَلُّنَا، شيئًا فشيئًا، وأنّ الوَغَرَ يَتَغَرُّ
وَيُلَمُّهَا خُطَّةً، وَيُلَمُّ قَابِلَهَا، لمثلها خَلِقَ الصَّمْصَامَةَ الدَّكْرُ
وإنّ بطنَ الثَّرى أُولَى بِمُمْتَحِنٍ، مِنْ أن يَدِبَّ عَلَيْهِ وَهُوَ مُحْتَقِرٌ
بيضُ الصفائح لا سودُ الصفائف في متونهنَّ لأهلِ الملةِ الوَزْرُ
أمّا التهافُ إِيثارًا لعافيةٍ، فذاك واللهِ رأيٌ طاش مُبْتَسِرُ
وذاك أنّا انتقلنا من أَدَى لَأَدَى، إذا نَأَى خُسْرُ أَلْوَى بنا خُسْرُ

فَلتَخْسَأُ الحِكمَةُ العِرجاءُ، كَمِ حِكمِ أَنتِ عَلينا مُنيحًا فوقنا الصَّعْرُ
عَبَدَ اللطيفِ كأَنَّكَ الآنَ تسمَعُني، لا تبتئسِ، إِنني ما زلتُ أَصطَبُرُ
إِنني أَرى ظَفْرًا في العَيبِ مُرتقِبًا جِيلًا جَدِيدًا بأنَّ يُمَنَى لَهُ الظَّفَرُ
لكنَّ يَحزُنُبنفسي أنْ تَفارِقَني، وَأنتِ نَدَبٌ، شَدِيدُ البأسِ، مَبتَدِرُ
هَلْ مَتَّ، قالَ اليَقينُ المَرُّ، قالَ، نَعَمْ، وَكلُّ وُدٍّ سيعرُو حَبْلَهُ بَتَرُ
كُلُّ ابنِ أنثى، وَإِنْ طالتَ سلامتُه، يَوْمًا سَيَكسُوهُ مِنْ بَعَدِ الكَسَا عَبرُ
لكنَّ يَحزُنُ بنفسي أنْ أَجِئَ إلى دارِ العِلمِ فلا أَلْفِيكَ تَنتَظِرُ
قَد كَنتُ أَحسَبُ أنَّ المَوْتَ يَنزِلُ بي مِنْ قَبْلِ، لَمَّا ذَهَبَتْ أَيامِي العَيرُ
وَعَندما بانَ جَدًّا أَنني شَبَحُ يَريدُ يَنقُضُ، أُوهِى عَظَمَهُ الكِبرُ
تَعاورَتُهُ خَطوبُ لا عِلاجَ لَها، وَ طالَ في غيرِ شَيءٍ يَنفَعُ العُمُرُ
وَقَلتُ إنَّ لِقاءَ اللَّهِ أَرُوحُ لي، وَهانَ لِحَدِّ مُجِيفٍ بابُهُ حَجَرُ
وَقَلتُ مَنْ ذاكِ إِيَّاي حَينئذِ، وَالناسُ تَرضيهِمُ الذِكرى إذا ذُكِرُوا
وَقَلتُ يَنظُمُ مَرتَاتي أحوَ ثِقَةٍ، نَدَبٌ، بِصيرُ بَفنَ الشِعرِ، مَقتَدِرُ
أَحنى عَلى واحِدي رَبُّ الزَمانِ، وما يُبقي الزَمانُ عَلى شَيءٍ ولا يَذَرُ
إِنَّ أَنسَ لا أَنسَ عَينِكَ اللَتين هَما، كَكُلِّ عَينينِ، سِرٌّ، دَقٌّ، مُطَمِّرُ
إِنَّ أَنسَ لا أَنسَ لَمَّا جَفَّ ماؤُهُما، وَقَالَ ما قالَ في مُوقَئِهِما النَظَرُ
هَذا الوِداغُ، وَلنَ أَلقاكَ ثَانيَةً، حَلَّ الَّذي ما وَقى مِنْ حَلِّهِ حَذرُ
جَرَرْتُ ساقِي نَحو البابِ يُثَقِّلُني عَجزِي، كَأَنَّي جِيشُ راحِ يَندَجرُ

وليس من شيمتي أن لا أحمفَ إلى عون الصديق، ولا من شيمتي الخور
وددت لو كنت مسطيعاً، وهل أحد قبلي أعان مريضاً وهو يحتضر
وليس من ديدني أن أستكين إلى دمع لأجل قضاء الهم ينهمر
لكنني بشر، والله يعدني إن شاء، وهو إذا ما شاء مغتفر
فلتذرف العين، ولتبكي فجميعتها رفيقة صبرت، ما عابها ضجر
وأها وأوه، ووأها أوه، واحرباً من لوعة الفقد، شيء في ينكسر



إلى أمِّ من لبنان

رأيتها في مساءٍ، يَهْوَى خيالي ذِكْرَهُ
بَسَامَةً تَنْثُر العطفَ حولها والمسرة
رأيتُ شاعرةً في عيونها مُسْتَسِرَّة
أصغتُ إلىَّ فكانت تصغي إلى كلِّ نَبْره
شربتُ من ناظرِها شُرْبَ المرید المُكره
كانا يقولان أحسنت، نظرةً بَعْدَ نظره
فراح يهمسُ قلبي، تَضَوِّعِي يا زَهْره
إن سافرتُ لم يسافرْ عبيْرُها والخُضْره
أحييتُ لبنانَ لَمَّا شَمِمْتُ فيها عِطْره
عَنَّتْ فقلتُ تغَيِّ، إنَّ السعادةَ قُدْره
كأسٌ ستفرغُ يومًا، فلا تُضِيعِي قَطْره
ولا تَضِئِي عَلَيْنَا، ما في الودادِ مَضْره
ولا تخافي اقترابي، يا أمُّ، إلىَّ فِكْره
تحيَةً في نظيمٍ، يَدْرِي العليمون قَدْره
إليكِها، أَمَرَ الحسنُ، كيف أعصِي أَمْره
من صاحبٍ لكِ باقٍ، أهْدِي إلى الحبِّ عُمْره
لو أمكنته الليالي أحبَّ سبعين مره



حوار

رأيتُ الخيانةَ تُقبلُ مَحوى

فقال دمي كُلُّه: لا سلام

وَفَحَّتْ ثَعابِينُها في الجِرابِ:

إِلامَ صَدودُكَ هذا، إِلامَ

وقد جئتُ فَرَّاجَةً لكَروبِ،

وأنتِ المُدَمِّى، فكيف أُلامُ

أيا غِرُّ لا تَبكِ حاءً وباءً،

لَدَيَّ - إِذا شئتَ - حاءٌ ولامُ

إِذا لم تُفِدْكَ التَّجارِبُ أَلّا

تَبالى، فِيا شِيحُ أنتِ الغلامُ

وأنتِ - إِذا أَسَعَفَتْ حيلةٌ

ولم تَرْتَكِبْها - رهيئُ احتلامُ

فقلتُ: حَسَأْتِ، وَإِنْ أَرَهَقْتَنِي

وطلتِ عليَّ صنوفُ الكلامِ

أمنَ بَعْدِ خَمْسِينَ يَطْلُعُ صُبْحُ

عليَّ يَغشِيهِ هَذَا الظلامُ؟

لأنَّ العَدُوَّ، حَسَأْتِ،

ولو دارَ بَيْنِي وبينكَ يوماً كَلامُ



وَجَدَّ زَمَانٌ

امضِ إِلَى حَيْثُ تَرَى قَارِبِي؛
الْجَبَلُ مَتْرُوكٌ عَلَى الْغَارِبِ
جَدَّ زَمَانٌ، فَافْهَمَنَّ حُكْمَهُ
عَضَّ عَلَى الْجَاسِرِ وَالْهَائِبِ
وَخَلَّ جَنْبَيْكَ لِإِرَامٍ إِذَا
كَثَّرَ، تَأْمَنُ شِرَّةَ الضَّارِبِ
يُكْفِيكَ إِنْ يُرِغِ وَيُزِيدُ
رَضَى الرِّيحِ، وَمَوْجٌ لَيْسَ بِالْغَاضِبِ
لَا تَشْغَلُ الْبَالَ بِمَاضٍ مَضَى،
وَلَا بَاتٍ مِثْلَهُ ذَاهِبِ
تَرَقَّرَقَ الْمَاءُ، وَفِي جُعْبَعَتِي
خُبْرٌ، وَدَتِّي لَيْسَ بِالنَّاصِبِ
وَذَا شَرِيطٌ، لَا يَمَلُّ الَّذِي
يُصْغِي إِلَى سَلْسَالِهِ الْخَالِبِ
لَسَوْفَ يَصْطَادُكَ، حَتَّى إِذَا
دَخَلْتَ فِي نَوْمِكَ يَا صَاحِبِي
فَاعْنَمْ مِنَ الْحَاضِرِ لَدَاتِهِ،
قَبْلَ حُضُورِ الْحَنْشِ الْغَائِبِ

وسوف تأتي لك شَبَابِي
سَجَتْ لِيَالِينَا، وَطَابَ الْحَلَا
سَجَتْ لِيَالِينَا، وَطَابَ الْهَوَى
وَنَحْنُ لِلْحَبِّ خُلْفَنَا، فَلَا
وَالشَّعْبُ مَبْسُوطٌ، فَلَا تَلْقُهُ
رَاضَتُهُ أَيْبَابُ حَرِيرِيَّةُ
وَالْحَرْبُ - فِيمَ الْحَرْبُ - أَصْلُ الْأَذَى،
شَمْطَاءُ - لَوْ شَبَّهَتْ - مَكْرُوهَةٌ
رَثِيثٌ لِلْبَاكِي وَمُبْكِيٍّ،
فَخَفْ عَلَى جِلْدِكَ، لَا تَنْضَهُ

- إِذَا انْتَشَتْ - بِالْعَجَبِ الْعَاجِبِ
لِلْأَكِيلِ التَّيْسِ، وَلِلشَّارِبِ
لِلْمُخْمَلِ الْمَرْكُوبِ وَالرَّاكِبِ
تُبَالٍ إِلَّا بَلَمَى كَاعِبِ
لِقَاءِ مَكْرُوبٍ وَلَا كَارِبِ
دَهْرًا، فَأَمْسَى لَيِّنَ الْجَانِبِ
وَشُغْلَةَ النَّاهِبِ وَالغَاصِبِ
لِلشَّمِّ - وَاسْأَلْ جِبْهَةَ الْقَاطِبِ
رَثِيثٌ لِلظَّامِيِّ وَالسَّاعِبِ
سَالِبَةُ الْمَسْلُوبِ وَالسَّالِبِ

يُنْبِيكَ مِيرَاثُ قُرُونٍ خَلَّتْ
فَاغْنَمَ مِنَ الْحَاضِرِ لِدَاتِهِ،
وَلَا تَشَاءُمْ أَبَدًا بِالْبَدَى
وَإِنْ دَنَا مِنْكَ غَرَابٌ، فَلَا
وَإِنْ تَوَلَّى قَمَرٌ فَاَنْتَظِرْ
لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ عَشَى الْأُلَى
هَذَا زَمَانُ الظَّرْفِ، فَافْهَمَ تَلِجٌ،

أَنَا - بِحُكْمِ اللَّهِ - لِلْغَالِبِ
وَاعْرِفْ جَمِيلَ الْمُحْسِنِ الْوَاهِبِ
يَجْرَى، وَلَوْ لَمْ يَكُ بِالصَّائِبِ
تَسْمَعُ لِعَاقِ الْأَسْوَدِ النَّاعِبِ
يَوْمًا طَلُوعَ الْقَمَرِ الْآيِبِ
قَدْ أَرْغَدُوا، فِي مَنْظَرٍ شَاحِبِ
أَوْ لَا فَوَاجِةً نَكَدَ الْحَاجِبِ

* * *

أَسْرَفْتُ فِي التَّعْرِيفِ يَا صَاحِبِي،

فَلَنَدَعِ الْأَلْوَى إِلَى لَاحِبِ

أَسْرَفْتُ فِي السُّخْرِ، وَمَا يَنْبَغِي
أَنْ يَسْخَرَ اللَّاعِبُ مِنَ لَاعِبٍ
حَدِيثَ لَا لَاهٍ وَلَا كَاذِبٍ:
قَصَائِدُ الْمَازِيِّ وَالنَّادِبِ
يَسْتَسْهِلُ النَّوْحَ، وَلَا لَاعِبِ
تَصْنَعُ الشَّاعِرِ وَالكَاتِبِ
كَانَ التَّحَدَّى أَوْجِبَ الْوَاجِبِ
لَأَفْلَتَ الضَّرْعُ مِنَ الْحَالِبِ
فَأَنْتَ فِي طَفْوِكَ كَالرَّاسِبِ
بِالطَّوْعِ، كَالشَّيْعِيِّ وَالنَّاصِبِ
وَقَدْ بَدَأَ جَدًّا هَوَى الْخَارِبِ

أَسْرَفْتُ فِي السُّخْرِ، وَمَا يَنْبَغِي
حُدِّثْتُ عَنْ بَحْمِ دَفِينِ السَّنَا
أَنَّ الَّذِي غَالَ أَمَانَيْنَا
لَا تُرَبِّحُنِي الصَّوْلَةُ مِنْ قَاعِدِ،
وَرِعْمَا أَزْرَى بِأَلَامِنَا
وَكَلَّمَا اشْتَدَّتْ تَبَارِيحُنَا
وَلَوْ غَدَا الْمَنْطِقُ أُحْجِيَّةً،
إِنْ كُنْتَ صَدَّقْتَ الَّذِي قَلْتَهُ،
وَأَنْتَ فِي الْغَفْلَةِ مَسْتَعْرِقُ
وَكَالَأُلَى دَانُوا الْخُرَّابِيَّ،

أَوْ كُنْتَ لَمْ تَعَمَّ عَمَانَا فَسَلْ
وَلَا تَحَاوِرْنِي حَوَارَ الذِي
فَلَا رَأَى الْمَخْرَجَ مِنْهُ، وَلَا
جَرَاخُنَا أَغْوَرَ مِنْ مَبْضَعٍ
وَالْحَلُّ مُوجُودٌ، وَلَكِنَّهُ
يَا خَاطِبَ الْعِزَّةِ مَا أُمَهَّرْتَ
لَا تَعْدِلْنِي أَنْ لِي شَارِبًا
الذِينَ بِيَدَاءٍ، فَأَوْغِلْ، وَلَا
لَيْسَ الْجَلَابِيْبُ الَّتِي قُصِّرْتَ،
لِلبَيْتِ رَبُّ، فَمَتَى يَنْتَحِي

أَيْنَ مَثَاوِي بَجْدِنَا الْغَارِبِ
يَهَيِّمُ كَالْعَشْوَاءِ فِي جَادِبِ
صَادَفَ عُشْبًا فِي ثَرَى عَاشِبِ
فِي يَـــــــدِ لَا دَارٍ وَلَا دَارِبِ
تَحْتَ ضُرُوسِ الصَّيْغِمِ الْوَاتِبِ
يَوْمًا سَوَى الْقَضَابَةِ الْقَاضِبِ
لَمْ يُخَفَ، أَوْ أُنَى بِلَا شَارِبِ
تُمْسِ بِجَوْفِ اللَّيْلِ كَالْحَاطِبِ
وَلَا لِحْيٍ كَالْأَمَلِ الْخَائِبِ
لِيُرْجَعَ النَّوْقَ أَبُو طَالِبِ

لَعَفْتُ أَنْ أَحْيَا حَيَاتِي لَقِيَّ

فَاكْذِبْ عَلَيَّ غَيْرِي يَا سَاهِرًا

بَرِّئْتُ لَوْ أَنَّ مَآذِيئَنَا

فَلَيْسَ بِاللَّائِقِ فِي مَأْتَمٍ

فَهَاتِ مَجْدَافِيكَ يَا قَارِي

أَمَامَنَا الْبَحْرُ، فَهَيَّا بِنَا

وَدَّعْ مُحِبِّيكَ؛ فَقَدْ يَنْجَلِي

وَلَا يَهُولَنَّكَ ذِكْرُ الرَّدَى؛

وَدَّعْ مُحِبِّيكَ؛ فَقَدْ يَنْجَلِي

وَدَّعْ رُبَاعِيَّاتِ مُسْتَبْتَلٍ

يَنْقَادُ لِلدَّفْعِ وَالْجَادِبِ

لِلصَّبْحِ فِي مَاخُورِهِ الصَّاحِبِ

تَبْرَأُ مِنْ عُرْسٍ بِهَا دَائِبِ

تَسْمَعُ الْعَازِفِ وَالْقَاصِبِ

وَلنَبْدَأُ الْهَجْرَةَ يَا صَاحِبِي

نَجُوبُ مَا عَزَّ عَلَيَّ الْجَائِبِ

هَبُّ الصَّبَا عَنْ صَرَصِرٍ حَاصِبِ

فَغَايَةُ الْهَارِبِ كَالْحَارِبِ

قَطْرُ التَّدَى عَنْ عَارِمٍ رَاعِبِ

لِعَاشِقٍ، أَوْ عَابِدٍ رَاهِبِ

أَوْ سَاهِرٍ لِلصَّبْحِ دَارَتْ بِهِ
وَفَارِقِ الْحَيْرَى وَخَيْامَهُمْ؛
وَلَا تَهَمَّنْكَ ضَالَالَتُهُ،
أَعِشْنَا طَيْفُ خِيَالٍ؟! إِذَنْ
أَمْ هُوَ فِي رَأْيِ عَمِّ قَصَّةٌ
إِذَنْ، فَمَا الْفَرْقُ - تُرَى - بَيْنَنَا
لَمْ يَغْنِ مَحْيَاهَا وَحُوشَ الْفَلَا،
لَكِنْ قَضَى رَبُّ بَنِي آدَمِ
وَيُجْفَلُ الدَّاحِلُ فِي أَشْبِ،
وَلَوْ تَطَلَّعْتَ إِلَى شَارِقِ

دِنَادِنٌ كَالشَّارِعِ الصَّاحِبِ
مَلَلْتُ مِنْ رَبِّ وَمِنْ رَائِبِ
فَالْأَمْرُ لِلْمُكْسَبِ لَا الْكَاسِبِ
فَمَا لَهُ كَالْحَسَكِ النَّاشِبِ
يَقْصُصُهَا ذُو خَلْدٍ عَازِبِ
وَبَيْنَ سِرْبِ الْبَهَمِ السَّارِبِ
وَلَا تَرَدِّدِيهَا إِلَى تَارِبِ
لِلطُّفْلِ أَنْ يَسْأَلَ: لِمَ يَا أَبِي؟!
وَيَصْنَعُ السَّالِفُ لِلْعَاقِبِ
تَسَاءَلْتُ رَوْحَكَ عَنْ غَارِبِ

وَرَعْدِهَا، وَصَوْبِهَا الصَّائِبِ
فَالْأَمْرُ لِلْمَكْسَبِ لَا الْكَاسِبِ
عَنِّي خَلِيٌّ الْبَالِ بِالرَّاغِبِ:
وَلَيْسَ لَيْلَائِي إِلَى جَانِبِي
وَكُلُّ مَا يَخْزِيهَا حَازِبِي
وَعَدُّ، فَسُؤْمٌ فِي فَمِ الرَّاغِبِ
نَجُوبٌ مَا عَزَّ عَلَى الْجَائِبِ
عَوَالِمٌ كَشَّفَتْ عَنْهَا رَبِّي
لَا تَعْتَمِدُ إِلَّا عَلَى رَاغِبِ
وَأَنْتَ لَا تَدْرِي - إِلَى لَازِبِ

وَعَنْ سَمَاوَاتٍ، وَعَنْ بَرْقِهَا،
فَلَا تُوهِّنُكَ ضَالَالَاتُهُ،
وَلَسْتُ عَنْ أَنْ أَتَعَيَّ كَمَا
مَا أَضْيَعُ الْيَوْمَ الَّذِي مَرَّ بِي
لَكِنِّهَا تَشْكُو كَمَا أَشْتَكِي،
رُضَابُهَا شَهْدٌ، وَلَوْ ضَامَهَا
أَمَانَنَا الْبَحْرُ، فَهَيَّا بِنَا
وَرَاءَ لَيْلَاكَ، وَكُلِّ الْمَمَهَا
وَاسْتَصْحَبِ الرَّاغِبَ فِي خَيْرِنَا،
وَاحْذَرْ، وَإِلَّا مِلْتَ عَنْ لَازِبِ -

ولا تُقْلَ لى شِخْتِ؛ كَمِ مِنْ فِئى

عن مُرتقى أشياخه ناكبِ

وإنْ تَفَشَّى الشيبُ فى مَفْرِقى،

فما فَشَا فى نَظَرِ ثاقبِ

امضِ إلى حيثُ أرى قارى؛

ما تُرِكَ الحبلُ على الغاربِ



من وحي الوافر

نُشرت هذه القصيدة من قبل في مجلة "الثقافة" ومعها الكلمة الآتية:

"لهذه القصيدة قصة صغيرة أرى ذكرها مفيداً لتاريخ الأدب. منذ أربعة أعوام نُشرت لي كلمة في الصفحة الأدبية للأخبار عنونها "محمود حسن إسماعيل يكتب الشعر الحر، لماذا؟" كانت محاولةً لتجديد مناقشة المسألة، واستطلاع رأى الرجل الذى ظل أكثر من عشرين سنة عازفاً عن هذا الضرب من الكلام. كُتبت في هدوء شديد، لكنني فوجئت بغضب من الأستاذ شديد، تمثل في شيئين: أنه كتب ردًا قصيراً في الصفحة نفسها أبان عن بعض انفعاله. ثم كتب

في مجلة "المجلة" مبيّنًا عن سائره قصيدة "الوهج والديّان". لم يذكّرني فيها صراحةً. لكنه صبّ نغمته علىّ عبر إزرائه بمن سماهم الديّان، أي الحريصين على التراث، وإشادته بمن سماهم النسور، يعني أصحاب الشعر الحر. ثم نشرها في أحد دواوينه دون إشارة إلى المناسبة. ولَمَّا كان في القصيدة معنى عام يتجاوز الانفعال الذي حركها وجدّتي أنظم ردًّا تجاوز الانفعال الذي حركه إلى معنى عام، هو هذه القصيدة التي جاد بها "الوافر"، البحر الرابع من بحور الشعر. لم تكن أول أمرها على هذا النحو، فقد دخلها فيما بعد شيء كثير من التنقيح والزيادة. لكنها عرّضت منذ أول أمرها لانتقاد مراكز القوى في ذلك الحين، ولهذا كان لا بد أن تطوى. وبقيت مطويةً حتى حدث شيء فوجدتني أردد أبياتًا منها، كأنهما جاءت تسليني. وهنا أدرك شهرزاد الظلام فسكتت عن الكلام الحرام.

رَغِبْتُ عَنِ الْهَرَاءِ فِيَا جَلِيسِي

تَقَطَّنْ، لَسْتُ أَسْمَعُ مَا تَقُولُ

وَيَا هَمِّي سِيمُضِيكَ اعْتَزَالُ

وَلَيْلٌ لَا يُقَالُ لَهَا: طَوِيلٌ

وَنَظْمُكَ كَلِمَا عَدَتِ الْعَوَادِي

قَرِيضًا لَا يُدَاخِلُهُ فَضُولُ

بِهِ أَنْفٌ مِنَ الْمَكْرُورِ، فَاقْنَعُ

بِصُحْحِيَّتِهِ، فَذَاكَ هُوَ الْخَلِيلُ

يُحَدِّثُ فِيَّ قَبْلَ السَّمْعِ رُوحِي

وَإِنْ يُطْنَبُ فِإِطْنَابٌ جَمِيلٌ

وَيَعْرِفُ حَاجَتِي لِلصَّمْتِ إِمَّا

كَفَانِي مَا سَمِعْتُ فَلَا يَطِيلُ

إِذَا حَلَّتْ بِحَيْثُ قَضَى مُرَادِي

قَوَائِفِهِ تَطَرَّبَنِي الْخَلُولُ

كَأَنِّي شَارِبٌ ثَمَلٌ سَقَمْتُهُ

عَيُونٌ غَازَلْتَهُ، أَوْ سَمَّوُلُ

كَأَنِّي زَارٌ صَحْرَائِي حَفِيفُ

فَأَنْوَاغُ الْحَرِيرِ بِهَا تَجْوُلُ

أَلَامِسُ لَا يَرُدُّ هَوَايَ خَوْفٌ

وَلَا سَأَمٌ، وَلَا دَلٌّ مَطْوُلٌ

فَشَعْرٌ دَاعَبْتَهُ يَدِي طَلِيقٌ

وَأَخْرُ دَاعَبْتَهُ يَدِي جَدِيلٌ

وَحَدُّ لَدَهُ مَدْحِي، وَحَدُّ

وَدِدْتُ لَوْ أَنَّهُ أَبَدًا أَسِيلٌ

وَعِطْرٌ غَضَّ نَفَحَتَهُ حَيَاءٌ

وَعِطْرٌ لَا يُبَالِيهِ جَزِيلٌ

كَأَنِّي قَائِدٌ لَبَّاهُ جَحْرٌ

لَهُ كَرٌّ وَفَرٌّ، لَا فُلُولٌ

* * *

مُفَاعَلَتَن مَّفَاعَلَتَن فَعُولٌ

وَكَمْ رَكَّضَتْ لَنَا يَوْمًا خِيُولٌ

أَعَانَتْهُنَّ حِكْمُتُنَا قَدِيمًا

وَهَا هِيَ ذِي إِلَى سَفَهٍ، تَتُّوُلٌ

فَوَأَسَفَا لِإِلْهَامٍ يُوُولِي

وَوَأَسَفَا لِسُلْطَانٍ يَدُوُلٌ

وليس يسود من يعنيه وزن

وقافية تجاوبه عمو

مفاعلتن مفاعلتن فعول

أهذا الوقع يدركه الأفول

أجبي عن سليلك يا فرونًا

توالى وهو زاه لا يحول

أجبتهم يا ابن كلثوم، ولكن

ترقق، ربما أصغى قبيل

فإن صموا فلا تأسف عليهم

سينجم بعد هذا الجيل جيل

يحن لحففة طرحت، ويأسى

لقافلة تحورها الدليل

على أي لهم وإن استبدوا

بمرصاد، وإن عز المقي

ويحككم بيننا يا عمرو رأي

صقيل، لا القناه ولا الصقيل

وشعر ليس يعنيه إذا ما

سما الإيقاع رفض أو قبول

ستبحر حيث لا سفن سفيني

يشق الحجب بي فكر رحول

وتنقاد الشوارد لي، وإلا

فجالهن لي شرك خول

إِذَا قَالُوا: حِبَالٌ، جَمَعَ حَبَلٍ

أَقُولُ وَلَا أُبَالِيهِمْ: حُبُولٌ⁽¹⁾

فَمَا هَدَلَ الْحَمَامُ لِأَجْلِ مُصْنَعٍ

يَرُوقُ بِسَمْعِهِ ذَاكَ الْهَدِيلُ

أَنْدُ فليس مَبْدُولِي بَزَادٍ

وَعَايَةُ رِحْلَتِي أَجَمٌ وَغَيْلٌ

* * *

مُفَاعَلَتُنْ مُفَاعَلَتُنْ فَعُولٌ

وَأَمَسْتُ لُعْبَتِي هَذِي الْعُلُولُ

سَلَوْتُ وَكَلُّ هَمٌّ دُونَ هَمِّي

وَأَصْلٌ فِي خَلَائِقِي الْحُفُولُ

أَقُولُ إِذَا ادَّهَمَ الْأَفْقُ: هَوْنَا

فَكَلُّ النَّسْجِ مُبْرَمُهُ سَحِيلٌ

وَكَلُّ قَصَائِدِ الشُّعْرَاءِ يَوْمًا

سَيَفْنِي الْقَائِلُوهَا وَالْمَقُولُ

فِيَا عَدَمًا كَأَنِّي مُرْتَمِيهِ

عِيَانًا، لَنْ يُرَوِّعَنِي الرَّحِيلُ

(1) بعضُ الناس يُنشد البيت برفع هذه الكلمة، والصواب ما أثبت. والمعنى "إذا قالوا حبالٌ - عنيثُ جمع حبل - فتأمل".

وليس بسالي حقا ترابُ
جَزَانِي أَنْ أَصْفَى مَا خُلِقْنَا
وهَوْنٌ مِنْ صِيَالِ الْعَيِّ عِنْدِي
وواعظنا الذي ما جدَّ إلا
وإيمانٌ تُوَهَّنُهُ ظُنُونٌ
وأوهامٌ نُسَمِّيها حُلُولًا
وطَرْفٌ غَاضٍ فِيهِ كُلُّ حُسْنٍ
وَأَنْتَى فِي قَرَارَةٍ كُلِّ أَنْتَى
يطيبُ لها العشيُّ وَإِنْ عَدَاها
عَرَفْتُ شَرَارَةَ مِنْهَا اطمأنتُ
أقولُ مُعَزِّيًا صَحْبِي، وَنَفْسِي

تساوى في غيَابَتِهِ النُّزُولُ
لِرُؤْيَيْهِ أَرَانِيهِ الشُّمُولُ
يَقِينِي أَنْ مُرْشِدَنَا ضَلُولُ
لِيَطْعَمَ، أَوْ لِيَطْعَمَ مَنْ يَعُولُ
وبعضُ الظنِّ قَتَّالٌ قَتُولُ
وعندَ عليِّم ما خَفِيَ الحُلُولُ
وطَرْفٌ أَحْوَرٌ، دَعَجٌ، كَحِيلُ
عناها دونَ فَضْلِهِمُ الفُحُولُ
رضاءُ، ولا يطيبُ لها الحليلُ
فَأَنْشَبَ ظُفْرَهُ الطَّبَّعُ الوَبِيلُ
رُويَدًا، إِنَّمَا الدُّنْيَا فُصُولُ

لنا حينًا وأحيانًا علينا

وليس الخيرُ حالًا لا تحوُلُ

* * *

مُفاعلتنْ مُفاعلتنْ فعولُ

تهبُّ الريحُ لكبيِّ حمولُ

وكم سَكَنَ احتدامي ثمَّ أوزَى

وأخلفَ ما ظننتُ به الفَتِيلُ

فهايتي ما بدالكِ يا عَوَاتِي

فما ضَرَبْتَ بلا بأسٍ شُبُولُ

تعاظمُ شِرَّةَ الأشرارِ غَيْرِي

وجلَّ على سِوى الحُرِّ الجليلُ

وأحكَمَ مَرَّتِي، وأقلَّ لَهْوِي

طُمُوخٌ لا يكفُّ له غَلِيلُ

وتصريفُ الكلامِ يدقُّ حتى

يقولُ العُجبُ ليس له مثيلُ

* * *

إلَى إلَى فإعلتنْ فعولُ

تمكَّنَ في الحشا الداءُ الدَّخِيلُ

إذا ما زالَ شوقٌ بَعْدَ لأبي

أزالَ زوالَهُ شوقٌ سليلُ

أَعَيْنَاهَا، أَخَدَّاهَا، أَفُوهَا
تَنْزَهُ بُرْهَةً فِيهَا خِيَالِي
لِأَلْفِيَنِي، وَإِنْ صَحَّ اعْتِرَامِي
إِلَى حِينٍ، أُجْمَعُ فِيهِ لُبًّا
وَلَكِنِّي، عَلَى بَصَرِي وَخُبْرِي
كَأَنَّ تَلْهُبِي مَا كَانَ يَوْمًا
سَأْهُوِي مَا حَيَّيْتُ، نَقِيعُ سُمَّ
مُفَاعَلْتُنُ مُفَاعَلْتُنُ فَعُولُ
وَلَا يَكْرُبُكَ أَنَّكَ صِرْتَ فَرْدًا
وَأَنْ دَانُوا بِمَا تَابَاهُ دِينًا
وَطَغِيَانُ الْهُوَى فِي النَّاسِ حَتَّى

أَنْهَدَاهَا، أَمْ الْخَصْرُ النَّحِيلُ
لِيُنْكَرَ فِعْلُهُ خُلُقُ عَدُولُ
تَنَازَعَنِي التَّنَائِي وَالْمُقُولُ
شَتِيئًا، ثُمَّ تَتَّحَدُ السَّبِيلُ
أَرْحِي دَائِمًا مَنْ تَسْتَمِيلُ
وَمَاضِي حُرْقِي ظِلُّ ظَلِيلُ
شَرَابِي الْمُرْتَجَى أَوْ سَلْسَبِيلُ
تَحَامَلُ أَيُّهَا الْحَادِي النَّبِيلُ
وَأَنَّ كِتَابَ الْمَوْتَى تَصُولُ
وَأَنْ نَعَمْتَ بِحِطَّتِهَا الْعُقُولُ
كَأَنَّ عَافَ نَسَبَتْنَا الْعُدُولُ

إِذَا يُمْنَاكَ رَامِيَةً أَجَادَتْ
تَرْتَمَ، وَحَشْتِي طَالَتْ، وَقَوْمِي
أَسَاءَ كَثِيرُهُمْ، وَيَكَادُ يَجْكِي
تَرْتَمَ رُبَمَا يَنْأَى تَرَابُ
وَنَاهِضُ فِي عَزَائِمِنَا انْخِلَالًا
وَعَلَّمْنَا مُصَابِرَةَ الْبَالِيَا
وَكَيْفَ الْهَوُولُ يُصْبِحُ أَنْ سَهَرْنَا
وَأَنَّ سَلَاخَنَا بِيَدِ الْأَعَادِي
فَعَلَّمْنَا وَعَلَّمْنَا وَعَلَّمْنَا
دَعَاكَ إِلَى مُتَابَعَةِ الْأَسَارِي
يُرَجِّحِي مُوثِقُوهُ أَنْ يَنَالُوا

فَقَرَّتْ فِي مَرَامِيهَا النَّصُولُ
دَمَاءٌ لَيْسَ يُوقِظُهَا الْمَسِيلُ
كَثِيرَ مَسَاءَةٍ حَسَنٌ قَلِيلُ
أَهْيَلٌ وَيَأْسُنَا الدَّانِي الْمُهَيْلُ
لَهُ فِي طُورِ سَيْنَاءِ صَلِيلُ
وَأَنَّ الْبَدَاءَ فَرَحَتْهُ الْوُصُولُ
لِلْقِيَاهُ سَنِينًا لَا يَهُوُلُ
إِذَا يُعْطَاهُ وَجَدَانُ هَزِيلُ
وَإِنْ نَكَرْتِكَ أَدْمَعَةٌ فُسُولُ
فَلَا تَسْمَعُ لَهُ زَمَنٌ عَقِيلُ
وَخَزِيٍّ فِي الْعَوَاقِبِ مَا يُنِيلُ

لَهُمْ صَخَبٌ أَرَادُوهُ وَقَاءً
تَحَلَّوْا حِينَ شَقَّ سِوَى التَّخْلِ
وَكَمْ قَالُوا: تَحَرَّرْنَا فَرَدَّتْ
فِيَا حُرِّيَّةً كَسَلَى تَوَارِي
تَبَرَّاتِ الرَّجُولَةِ مِنْ رَجَالِ
إِلَامٍ بُجُوزِ الْأَبْوَابِ مَا مِ
لَيْنِ لَمْ يَنْفِ طَبْلَهُمْ نَفَاةً
هُمُ؟ كَلَّا تَوَاضَعُ يَا فَوَادِي
صَعُرْنَا كُنْنَا لَمَّا رُمِينَا
فَلَا يَغُرُّكَ أَنَّكَ كُنْتَ أَدْرَى
وَلَا يُعْجِبُكَ إِشْرَافٌ عَلَيْهِمْ

فَهَلْ تُنَجِّي ضَمَائِرَهُمْ سُذُورُ
وَهَانَ فَلَمْ يُعَادُوهُ السُّفُولُ
جِبَاهُهُمْ تَشَكَّى وَالسُّهُولُ
أَذَانَا لَنْ يُطِيحَ بِهِ كَسُورُ
قُصَارَى دَفَعِهِمْ قَالَ وَقِيلُ
يُجِزُ إِلَّا غِيٌّ أَوْ عَمِيلُ
لِنَافِيَةِ مَكَارِمِنَا الطُّبُولُ
فِيَاتِكَ بَيْنَ قَتْلَاهُمْ قَتِيلُ
فَسِيَّانِ التَّرْفُوعِ وَالتُّنْزُولِ
فَلَمْ يَغُرُّكَ مِنْ زَيْفٍ شُكُولُ
وَمَنْظَرِكَ الْخِرَائِبِ وَالتُّوْحُولُ

كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْهُمْ، أَنْتَ مِنْهُمْ

بِلَادِي، إِنَّ فِي دِمْنَا صَوَابًا

يُدُلُّ عَلَيْهِ - كَانَ يَدُلُّ - أَمْسُ

وَكَيْفَ يَعُودُ فِي الْأَعْرَاقِ يَسْرِي

لِنَكَرَةِ أَنْ يَقُولَ الْعَجْزُ فِينَا

وَتَشْهَدُ حَسْرَةً بِكَ لَا تَزُولُ

طَوَاهُ الْحِرْصُ وَالنَّظْرُ الْكَلِيلُ

فَكَيْفَ يُجِدُّ هَيْئَتَهُ الدَّلِيلُ

إِبَاءٌ طَلَمَا قُلْنَا: أَصِيلُ

وَنَحْنُ نَمُوتُ مَوْتًا، مَا الْبَدِيلُ

* * *

مُفَاعَلَتُنْ مُفَاعَلَتُنْ فَعُولُ

سُيُولًا تَجْرِفُ الْأَفْيُونَ يَنْمُو

أَعَانَ الْمَسْتَبِيحَ عَلَى التَّمَادِي

وَأَشْعَارُ لِنَوَّاحِينَ تَبْكِي

وَزَعَامُونَ مَا بَرِحَ ادَّعَاءُ

تَوَاصَلَ أَيُّهَا الْغَيْثُ الْهَطُولُ

عَلَى وَرَقٍ، تُوَافِيهَا سُيُولُ

صَدِيقَاهُ: الْمَنَافِقُ وَالْجَهُولُ

كَأَنَّ الدَّمْعَ بِالْبَلْوَى كَفِيلُ

لَهُمْ تَلَوْ ادَّعَاءٍ يَسْتَطِيلُ

وَهَذُرُ الْهَازِرِينَ عَلَى أَصُولٍ
أَيُّهَرْمُنَا الْبِنَاءُ عَلَى فِسَادٍ
أَحَاطَ بِنَا الْمَعُولُ، أَجَلٌ، وَلَكِنْ
فَهَلْ مِنْ صَحْوَةٍ، إِنَّ الرِّزَايَا

وَهَذُرُ الْهَازِرِينَ وَلَا أُصُولُ
فَيُتَّهَمُ "الْكَسَائِي" و"الْحَلِيلُ"
خِلَالَ دِيَارِنَا يَسْعَى مَعُولُ
طَعَتْ فِي فَتْكِيهَا، وَطَعَى الذُّهُولُ

* * *

مُفَاعَلْتُنْ، تَعَنَّ، وَقُلْ تَعَنَّوْا
جِبَاهِكُمْ، فَمَا أَجْدَى الْحَزَانِي،
كَذَبْتُمْ كُلُّكُمْ، وَإِحَالُ أُنِّي
لِأَعْيُنٍ مَنْ سَمَتْ وَصَفَتْ سَمَاءً
وَشَقَّ الْأَرْضَ مَاءً تَلَوَ مَاءً
لِأَعْيُنٍ مَنْ تَزَيَّنَتْ الْمَغَانِي؟

فَمَا اجْتَمَعَ التَّغْيِي وَالدُّبُولُ
وَجَعْتُمْ أَوْ تَوَاجَعْتُمْ، عَوِيلُ
عَلَى صِدْقٍ شَقِيثٍ بِهِ - زَمِيلُ
وَأَحْسَنَ نَشَرَ صُفْرَتِهِ أَصِيلُ؟
وَأُيْنَعُ فَوْقَ شَاطِئِهِ حَمِيلُ
لِأَعْيُنٍ مَنْ تَطَاوَلَتْ النُّخِيلُ؟

لِأَعْيُنٍ مِّنْ تَحَرَّاتِ الْعَذَارَى

لَنَا، وَلِغَيْرِنَا - إِنْ لَمْ نَصْنُهَا

وَكَمْ مُلْكٍ أَدَالَ اللَّهُ مِنْهُ

وَدُنْيَا فَضَّ حُرْمَتَهَا غُرَاةً

فَصُونُوهَا وَصُونُوهَا وَصُونُوا

وَمَا يَدْرِي بِحُضْرَتِهِ تَرَانَا

وفارقهِنَّ إغضاءً حَجْوَلُ؟

وليس بجائرٍ إلا الدليلُ

وإغماضُ العيونِ هو المُدِيلُ

فما اختلفتْ أَنْ اختلفَ البُعُولُ

فما تَدْرِي الرُّبُوعُ مِنَ النَّزِيلِ

فِيَجْدِبُ أَنْ تَمَلِّكُهُ دَحِيلُ

* * *

مُفَاعَلَةٌ مُفَاعَلَتُنْ فَعُولُ

لِغَيْرِ اللَّهِ صَلَّى الْعُرْبُ طُرًّا

وَلَيْتَ الْمَالَ عَزَّ فَلَمْ تُسَلِّهُ

دَنَا، فَلِيَحْذَرِ الْحَمَى، قِضَاءً

وَمَلٌّ مُقَامَنَا الْمَجْدُ الْأَيْلُ

وَسَبَّحَتْ الْمَصَانِعُ وَالْحَقُولُ

خَزَائِنُ فِي مَهَانَتِنَا تَسِيلُ

إِذَا عَجَلَتْ حَمَاقَتُهُمْ عَجُولُ

فِيَا أَرْبَابَنَا، يَا مُتْرَفِينَا

سَتَسْجُدُ فِي غَدٍ لَكُمْ الطُّلُوعُ

وَيَبْقَى عَارُ غَفْلَتِنَا عِبَادًا

وَأَهْلَهُ، إِذَا لَجَّ الْعُقُوعُ

* * *

إِلَىٰ إِلَيَّ فَاغْلُظْ فَعُوقُ

زَمَانُهُمْ بِأَنَادِي بَخِيلٍ

أَمُعْتَزِي رَجَعْتُ إِلَيْكَ إِنِّي

عَلِيلٌ لَيْسَ يُشْبِهُهُ عَلِيلٌ

يُظُنُّونَ الْمَالَاتَةَ فِيَّ طَبَعًا

وَلَكِنِّي غَرِيبٌ لَا مَلُوعُ

وَلِي أَرْبٌ، وَلَكِنَّ اللَّيَالِي -

لِأَنَّ الْقَهْرَ أَفْسَدَهَا - نَحُولُ

إِذَا خَنَعَ الرِّجَالُ فَعَدَّ عَنْهُمْ

فَأَهْوَىٰ مَا طَلَبْتَ الْمُسْتَحِيلُ

وَمَا نَأَىٰ التُّكُولِ نَأَيْتُ، لَكِن

لِأَنَّ رِضَا الْهَوَانِ هُوَ التُّكُولُ

فَإِنْ تَكُ شَاءَتْ الْأَيَّامُ دَحْرِي

فَلَنْ يُمِضِي مَشِيَّتَهَا النُّدُولُ

وَلَا الْأَغْرَارُ طَمَعَهُمْ نُحُولِي

وَلَوْ يَدْرُونَ رَاعَهُمُ التُّحُولُ

ولا بَشَمُ الثعالِبِ لَمْ تَدُذِّها

نِوَاطِيرُ وَعُنُقُودِي ضَمِيلُ

ولا أُنِّي أَضِيقُ بَأَنَّ أُدَارِي

مِشَاهِيرًا يَحِقُّ لَهَا الحُمُولُ

ولكنَّ أَنْ تُسَاقَ إِلَى رِذَاهَا

أُوفُ أُلُوفِنَا وَهِيَ الدَّلُولُ



الفهرست

الصفحة

1	1. إهداء
3	2. البيان الثاني
35	3. ارتعاشة
38	4. حصار
40	5. لك عين فأبصرى
43	6. معارضة تأخرت
46	7. محمود محمد شاكر
50	8. تجلدى يا لؤلؤة
51	9. لا سلام عليك
53	10. أسلم
54	11. قسم للقدس
69	12. إن لدينا عملاً
71	13. ابن الملوّح يبرأ

الصفحة

75	ناران	14
78	واضح	15
79	فتوى لكنها مرفوضة	16
83	يا فاطمة اعملی	17
85	رسالة إلى صاحب عاشق	18
92	مناجاة للمتنبي	19
94	مناجاة لعبد اللطيف	20

100	إلى أم من لبنان	21
101	حوار	22
103	وجد زمان	23
112	من وحى الوافر	24